معالم على طريق الصحوة (٥)

حصول الطلب بسلوك الأدب

و

سلوك الأدب جمال الحياة

تأليف
د. محمد موسى الشريف

دار الأندلس الخضراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م

الطبعة الثالثة

١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية ـ جدة

الإدارة: ص.ب ٣٤٠٤٢٣٤ جدة ٢١٥٤١

هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ ـ فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات • حي السلامة ـ شارع عبد الرحمن السديري ـ مركز السلامة التجاري

هاتف ـ فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر ـ شارع بلخشب ـ سوق الجامعة التجاري

هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ ـ فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي ـ بجوار أسواق اليمامة

هاتف: ٢٤٣٤٩٣٠ ـ فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

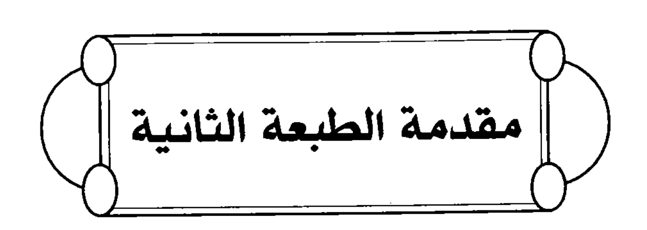
E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

إلى روح أستاذنا الزي توفي في شرخ الشباب

السيد أبي عبد الحميد رحمه الله تعالى

أهدي ثواب كتابي هزا.





مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه، ولله الحمد، الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وقد تأخرت إعادة طبعه لعوامل أحسب أن منها عنوان الكتاب وعدم كمال دلالته على الموضوع، فرأيت لذلك أن أغير عنوانه إلى ما كنت عزمت على تسميته به أولاً، تقريباً، وهو: «**حصول الطلب بسلوك الأدب**»، راجياً من الله تعالى أن يعم به النفع ويكتب لي به الأجر.

وأرجو ممن يقرأ هذا الكتاب أن يتحفني بنصائحه، إن رأى أن يُقوّم شيئاً أو يعلّق على أمر ما، ويرسلها على عنوان دار النشر، شاكراً للجميع.

وهذه الطبعة فيها بعض زيادات، وفيها تراجم للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله وسلّم على

سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي جعل هذا الدين مناراً للسالكين، وشرع له تعاليم هي رحمةٌ للعالمين، وزيّنه بآداب حميدة، وأخلاق قويمة؛ فَضَلَت خُلق المتخلقين، وسبقت طرائق المتأدبين.

وصلاةً وسلاماً تامَّيْن كاملين عَطِريْنِ على مؤدِّب العالمين، وعَلَمِ المؤدَّبين، سيدنا أبي القاسم متمِّم مكارم الأخلاق، وعلى آله طاهري الأعراق، وصحابته الكَمَلةِ السُبّاق، الذين أنار الله بهم الآفاق، وبعد:

أخي:

رزقني الله وإياك حسن الأدب، وسهَّل لنا طرائقَه، وحبَّب إلينا مسالكه، وعرّفنا دقائقَه، وزيّن لنا فضائله، وجعل بيننا وبينه نسباً، ورزقنا منه سبباً، وأشعر قلبك الأول عِزَّه، وأودع صدرك برده، وعرَّفك حلاوتَه.

وعصمني وإياك من سوء الأدب، وعرفنا ما فيه من

الذلة، وما لسالكه من القِلَّة، وما لمستحله من هوان، وما لمستسيغه من الخسران، وما يورث صاحبه من الطغيان الذي هو من أعظم أسباب الكفران.

واعلم، أخي، أنه ما دفعني إلى تصنيف هذه الرسالة، وتسطير تلك المقالة، إلا ما رأيته من مظاهرَ أفزعتني، وما سمعته من أحداث أرقتني، وما لمسته من معاملات أقلقتني؛ فجعلني ذلك كله كأني، عَلِم الله، مدفوعٌ دفعاً لما صنعته، ومأمور بما سطرته، لا أملك حيلةً لرده، ولا أطيق مقاومةً لأمره، وقد سدّ هذا الواردُ علي أبوابَ الأعذار، وساقني، ولم يَقبل الإمهال، حتّى جعلني أشرع في تصنيف هذا الذي أُعدُّه للآخرة، وتأليف ما لم أُرد به المفاخرة؛ إذ عندي من الأعمال ما يمنعني من سلوك هذه الطرائق، ويشغلني عن السير في تلك المضائق.

فالله أرجو أن يعم به النفع، فيكون تذكرة للمنتهي، وفائدة للمبتدي المؤتسي[1]، ومُحبِّباً في تلك المبادي، ومرغباً عن كل المساوي.

واعلم، أخي، أني لم أقصد، في هذا المصنف، جمع كل أبواب الآداب، ولا استيعاب ما ورد فيها من

---

(١) المقتدي.

آيات وآثار وأخبار؛ إذ لذلك موضعه، وإنما عمدت إلى أصول فقررتها، وأتيت من فروعها البواسق ما أظنه مناسباً لما هنالك، وسلكت في ذلك كله سبيل الاختصار حتى يكون فيما أورده غايةُ الاعتبار، والله المسؤول أن يجازيَني عليه بما هو أهله، سبحانه، ويكافئني بما أردت توضيحه وبيانه.

وقد سميته أولاً بـ«**حصول الأرب بسلوك الأدب**»، ثمّ أشار عليّ من أحبّ بتغيير الاسم لما فيه من صعوبة على العوامّ، فسميته: «**سلوكُ الأدبِ جمالُ الحياة**»؛ وذلك لأنّ الأدبَ، كما سيتضح في مباحث الكتاب، إن شاء الله تعالى، زينةٌ لصاحبه وجمالٌ له، وهو جمال المجتمعات والمحافل وزينتُها، وفوق ذلك كلِّه هو مطلوب الله تعالى ورسوله ﷺ، ومنهاج الصالحين، وسمة المتعبدين الزاهدين، فما أجدَر الأدبَ على هذا بأن يكون «**جمالَ الحياة**».

❁ ❁ ❁

تعريف الأدب

قال صاحب «اللسان»:

«الأدب: الذي يتأدب به الأديب من الناس، سُمي أدباً لأنه يَأْدِب (يدعو) الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصنيع يُدعى إليه النّاس: مَدْعاة ومأدُبة... والأدب: الظَّرف وحُسن التناول... وأدبه فتأدب: علّمه... ويقال للبعير إذا رُيِّض وذُلِّل: أديب مُؤدَّب»[1].

وقال صاحب «المصباح»:

«أدبته أدباً... علمته رياضةَ النفس ومحاسنَ الأخلاق».

قال أبو زيد الأنصاريّ[2]:

---

(١) «لسان العرب»: (أدب).

(٢) الإمام العلامة حجة العرب أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاريّ البصريّ النحويّ، صاحب التصانيف، ولد سنة نيف=

«الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل... ومنه قيل: أدبته تأديباً: إذا عاقبته على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب»[١].

وقال صاحب «التاج»:

«الأدب مَلَكةٌ تَعْصِم من قامت به عمّا يُشِينه...».

وفي «التوشيح»: هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً، أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات، أو تعظيم من فوقك والرِّفق بمن هو دونك.

ونقل الخفاجيّ[٢] في «العناية» عن الجواليّقي[٣] في شرح «أدب الكاتب»:

= وعشرين ومائة، وكان من مشايخ علماء اللغة الكبار مثل: سيبويه والأصمعيّ وخلف الأحمر، توفي سنة ٢١٥، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: **٩/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦.**

(١) «المصباح المنير»: (أدب).

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجيّ المصريّ الحنفيّ صاحب التآليف السائدة، وأحد أفراد الدنيا، أخذ عن مشايخ عصره وارتحل إلى القسطنطينية فأخذ عن علمائها، توفي سنة ١٠٦٩ بمصر، وقد أناف على التسعين، انظر «خلاصة الأثر»: **١/ ٣٣١ ـ ٣٤٣.**

(٣) العلامة الإمام اللغويّ النحويّ أبو منصور موهوب بن=

«الأدب في اللغة: حُسن الأخلاق وفعل المكارم...

وقال ابن السَّيد البَطَلْيَوْسِيّ[١]: الأدب أدب النفس والدرس... وأدَّبه: راض أخلاقَه وعاقبه على إساءته؛ لدعائه إياه إلى حقيقة الأدب»[٢].

وقال الإمام ابن القيم[٣]، رحمه الله تعالى:

«وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبة من الأدب العام»[٤].

= أحمد بن محمد الجواليقيّ إمام الخليفة المتقي، ولد سنة ٤٦٦، وكان ثقة ورعاً، وافر العقل، غزير الفضل، من المحامين عن السنة، وله عدة مصنفات أشهرها «المعرّب»، توفي سنة ٥٤٠، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٨٩ ـ ٩١.

(١) العلامة أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البَطَلْيَوْسيّ النحويّ اللغويّ، صاحب التصانيف والنظم الفائق، توفي سنة ٥٢١، انظر المصدر السابق: ١٩/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٢) «تاج العروس»: (أدب).

(٣) الإمام المشهور محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعيّ الدمشقيّ، شمس الدين الحنبليّ، ولد سنة ٦٩١ وتوفي سنة ٧٥١ بدمشق، وكان واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١ ـ ٢٣.

(٤) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٦.

وهو كما قال، رحمه الله، فإنه قد ذكر فرعاً، لكنه يانعٌ، من فروع الأدب.

وأعمّ من هذا وأفضل، قوله رحمه الله بعد ذلك:

«وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل»[١].

وقال الإمام ابن المبارك[٢]، رحمه الله تعالى:

«قد أكثر الناس القولَ في الأدب، ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها[٣]، وتجنب تلك الرعونات»[٤].

ومن أجمع وأجمل ما رأيته في تعريف الأدب، قول الحكيم الترمذيّ[٥]، رحمه الله تعالى:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

(٢) عبدالله بن المبارك المروزيّ مولى بني حنظلة، ثقة ثبت فقيه، عالم جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة ١٨١ وله ٦٣ سنة، انظر «التقريب»: ٣٢٠.

(٣) الرُّعونة: الحمق والاسترخاء: «لسان العرب» (رعن).

(٤) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

(٥) الإمام الحافظ العارف الزاهد أبو عبدالله محمد بن عليّ بن الحسن الحكيم الترمذيّ. كان ذا رحلة ومعرفة، وله مصنفات وفضائل ومواعظ وحكم. توفي في حدود سنة ٣٢٠، رحمه الله تعالى، وكان قد هُجر لكلام مضطرب في الولاية والنبوة ذُكر عنه أنه قاله، والله أعلم، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٤٣٩ ـ ٤٤٢، و«الأعلام»: ٦/ ٢٧٢.

«اعلم أن الأدب أن تُنزِل كلَّ شيء وضعه الله في جسدك في موضعه فلا تزيله عن مكانه، كما أنك إذا دخلت على رجل منزله فرأيت كل شيء، مما يوضع في المنازل ممّا يمتهن ويؤكل ويشرب ويُبسط ويُفرش ويوضع، وضع في مكانه، فيقال للذي يلي ذلك: أديب، وإذا رأيت الأمتعة وهذه الأشياء التي وَصَفْنا مطروحةً في غير مواضعها. . . أوحشك ذلك وسبق إلى قلبك سوء أدب من تولى حفظَ ذلك المنزل وسكنه، وكذا جسدك إنما هو بيت من بيوت الله[1]، قلبك آنية من أوانيه، وقد وضع في جسدك أصنافاً من خِلَعه منها: الغضب، والرأفة، والرحمة، والشهوة، والرغبة، والرهبة، فالأدب أن تنزل كلَّ شيء وضعه الله في جسدك من هذه الأشياء في موضعه، كما وضعه، فإذا هاج منك ذلك الشيءُ فلست بملوم عليه، إنما تُلام وتُحمد على الاستعمال بهذا الهيجان؛ فإنه لم يضع فيك الغضب لتستعمله حيث ما تهوى، ولكن إذا رأيت معصيةً استعملت الغضب الذي وضعه فيك له ومن أجله، على المقدار الذي حدّه لك، وهو أن لا تغضب غضباً تقع [به] في المعصية، فإذا فعلت هذا فقد تركت الغضب في

---

(١) هذه إضافة تشريف كما يقال «بيت الله»: للكعبة، وناقة الله، وعبدالله. . . إلخ.

موضعه كما وضعه، فإذا غضبت غضبت له[١]....

وكذلك كل شهوة وضعها فيك من الأكل، والشرب، والجماع، واللباس، والركوب، والمشي، والنظر، والاستماع، والشم، والبطش، والسعي، والكلام، وغير ذلك فإنما وضعها فيك لتستعملها له، ومن أجله، وعلى الحدّ الذي حده لك، فإذا كنت كذلك فأنت أديب، وهذا أدب الدين»[٢].

وأختم بهذه الكلمة لابن القيم، رحمه الله تعالى:

«والأدب هو الدين كله»، وفسّر ذلك بما يَسُرُّك فانظره[٣].

وبهذه التعريفات للأدب يتضح أن مقصود الأئمة، حال ذكرهم الأدبَ، أمران:

الأمر الأول:

الأدب العامّ الذي يتناول إخلاص التوحيد لله تبارك وتعالى، وشعائر الدين، وإحسان المعاملة بين الخلق بعضهم بعضاً.

---

(١) أي لا تفعل هذا الذي ذكره لكن إذا غضبت فينبغي أن تغضب لله.

(٢) «جواب كتاب من الرّيّ»: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٤.

والأمر الآخر:

الأدب الخاصّ الذي يتناول حالاتٍ مخصوصة للعبد في هذه الدار من أكل، وشرب، وقضاء حاجات، ومعاملة بين الناس، وأخلاقاً مخصوصة حث الشارع عليها وبيّنها.

وبين الأدبين عموم وخصوص، وتلازم في بعض صورهما، والمقصود في هذا البحث بيان أهمية الأدب بمعنييه العام والخاصّ، مع التركيز على بعض صورٍ تتناول الأدب بمعناه الخاصّ، والله أعلم.



أهمية الأدب وفضله وطلب الصالحين له

ليس أدلَّ على أهمية الأدب من كثرة اهتمام العلماء والأخيار به، وحثهم على تعلمه وسلوك طريقه، وقد قيل فيه أقوال باهرة، وإرشادات فاخرة، فمن ذلك:

«كان يُقال:

أربعةٌ يسود بها العبد: العلم، والأدب، والفقه، والأمانة»[١].

وقال الثوريّ[٢]، رحمه الله تعالى:

«من لم يتأدّب للوقت، فوقته مَقْتٌ»[٣].

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ، أبو عبدالله الكوفيّ. ثقة حافظ، فقيه، عابد، إمام حجة، من رؤوس المسلمين. توفي سنة ١٦١ وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب»: ٢٤٤.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

أي أنه لم يتأدب ويأخذ نفسه بشعائر الأدب فحياته مكروهة عند الناس.

«وقالوا:

ليس العاقل، وإن كان تامّاً، بمستغنٍ عن الأدب والعلم اللّذَيْن هما زينته وجماله»[١].

«وقال بعض السلف:

ناهيك من شرف الأدب أن أهله متبوعون والناس تحت راياتهم، فيعطف ربك تعالى عليهم قلوباً لا تعطفها الأرحام، وتجتمع بهم كلمة لا تأتلف بالغَلَبة، وتُبذل دونهم مُهج النفوس»[٢].

«وقال بعض الحكماء:

لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب»[٣].

«وقال آخر: العقل بلا أدب كالشجر العاقر، ومع الأدب كالشجر المثمر»[٤].

«وكان يقال: العون، لمن لا عون له، الأدب»[٥].

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣٢.
(٢) المرجع السابق: ٢٣٤.
(٣) «غذاء الألباب»: ٣٦.
(٤) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.
(٥) «غذاء الألباب»: ٣٦.

وقال الخليفة المستظهر[١] فيه قولاً بليغاً:

«أدب السائل أنفع من الوسائل»[٢].

وقال الإمام القرافيّ[٣] في كتابه «الفروق»، وهو يتحدث عن موقع الأدب من العمل وبيان أنه مقدم في الرتبة عليه:

«واعلم أن قليل الأدب خيرٌ من كثير من العمل، ولذلك قال رُوَيْم[٤]، العالم الصالح، لابنه: يا بني اجعل

---

(١) الإمام أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد الهاشميّ العباسيّ البغداديّ. ولد سنة ٤٧٠. وكان موصوفاً بالجود وحب العلماء وأهل الدين والتفقد للمساكين مع الفضل والنبل والبلاغة وعلو الهمة وحسن السيرة، توفي سنة ٥١٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٣٩٦ وما بعده.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٣٩٨.

(٣) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبدالرحمٰن الصنهاجيّ المصريّ، الإمام العلامة. انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك، وله مصنفات سارت مسيرة الشمس، توفي بمصر سنة ٦٨٤، انظر «الديباج المذهب»: ١/٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(٤) الإمام الفقيه المقرىء الزاهد العابد أبو الحسن رويم بن أحمد بن يزيد البغداديّ. له أقوال حسنة، وكان شيخ الصوفية ببغداد، توفي سنة ٣٠٣. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٢٣٤ ـ ٢٣٥.

عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً، أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في الكثرة نسبة الدقيق إلى الملح، في العجين، وكثير الأدب مع قليلٍ من العمل الصالح خير من العمل مع قلة الأدب»[١].

«ومن فضيلة الأدب أنه ممدوحٌ بكل لسان، ومتزين به في كل مكان، وباقٍ ذكره على أيام الزمان»[٢].

«وكان يقال: من قعد به حَسَبه نهض به أدبه»[٣].

«وقال بعض الفصحاء: الأدب يستر قبح النسب»[٤].

«وقال بعض البلغاء:

الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحَسَب؛ لأنّ من ساء أدبُه ضاع نسبُه، ومن قلَّ عقلُه ضلّ أصلُه»[٥].

«وقيل: الأدب في العمل علامة قَبول العمل»[٦].

«وقال بعض الحكماء:

---

(١) نقلاً عن كتاب: «من أدب الإسلام»: ٧.
(٢) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.
(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٨.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.
(٦) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨١.

أحسن الحلية الأدبُ، ولا أدبَ لمن لا مروءةَ له، ولا مروءةَ لمن لا أدب له»[١].

«وقال آخر:

يتشعب من الأدب: الشرفُ وإن كان صاحبه دنيّاً، والعزُّ وإن كان صاحبه مهيناً، والقُرْبُ وإن كان صاحبه قَصيّاً، والغنى وإن كان فقيراً، والنُّبلُ وإن كان حقيراً، والمهابةُ وإن كان وضيعاً»[٢].

«ورأى فيلسوف غلاماً جميلاً لا أدب له، فقال: أيُّ بيتٍ لو كان له أساس؟!»[٣].

«وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: أنا غريب، فقال له: الغريب من لا أدبَ له»[٤].

«وكان يقال:

ثلاثةٌ ليس معهن غربة: مجانبة الرِّيَبِ، وكفُّ الأذى، وحسن الأدب»[٥].

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «البصائر والذخائر»: ١/ ١٢١.

(٤) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٥) «تذكرة السامع»: ٢.

«وقال بعض الفلاسفة:

الأدب زيادة في العقول، ولقاحها وغذاؤها الذي لا يحييها غيره»[١].

والعاقل إذا تدبّر الأقوال المذكورة علم أهمية الأدب وفضله، وسعى لاكتساب وسلوك طريقه؛ بُغية أن يكتب من أهل الفضل والأدب.

ولقد كان السلف يحثُّون على اكتسابه، وتعلمه، والرحلة إليه.

قال الحسن[٢]، رحمه الله تعالى:

«إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين»[٣].

وقال مَخْلَد بن الحسين[٤]، أحد عقلاء الرجال

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣٤.

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار البصريّ، مولى زيد بن ثابت، رضي الله عنه، كان سيد أهل زمانه وسيد التابعين علماً وعملاً وفصاحة. توفي سنة ١١٠، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٦٣ ـ ٥٨٨.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٧.

(٤) مخلد بن الحسين الأزديّ المهلبيّ، أبو محمد البصريّ. نزيل المِصِّيصة، ثقة فاضل، مات سنة ١٩١. انظر «التقريب»: ٥٢٣.

وثقاتهم، لابن المبارك، رحمهما الله:

«نحن إلى كثير من الأدب أحوج منّا إلى كثير من الحديث»[١].

«وقيل للشافعي، رضي الله عنه: كيف شهوتك للأدب؟

فقال: أسمع بالحرف منه ممّا لم أسمعه فتودّ أعضائي أن لها أسماعاً فتنعُم به.

وقيل: وكيف طلبك له؟

قال: طلب المرأة المضلة ولدَها، وليس لها غيره»[٢].

وقال ابن المقفع[٣]:

---

(١) «لباب الآداب»: ٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) عبدالله بن ذادَوَيْه، أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكُتاب وأولي الإنشاء، كان من مجوس فارس فأسلم على يد الأمير عيسى عمّ السفّاح، وكتب له واختص به، حدثت له حوادث أدّت إلى قتله بأمر المنصور سنة ١٤٥ وعمره ست وثلاثون سنة، وقد اتُّهم بالزندقة من غير دليل واضح إلا ما روي عن ابن مهدي أنه قال: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع، وهذا لا يكفي لأنه قد يكون من وضع أعدائه. وانظر في أمره «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٣٠، و«لسان الميزان»: ٣/ ٤٤٩، طبعة دار الفكر.

«ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسِّنا من المطعم والمشرب، بأحوجَ منا إلى الأدب الذي هو لِقاح عقولنا وصلاحه»[١].

هذه بعض الأقوال في فضل الأدب، وطلب العلماء له، وقد سُقتها، على طولها، لتُعلم أهمية الأدب فيُحرص عليه، ويُتسابق إليه، وليُعلم أيضاً أن الساعي لطلبه ساعٍ في أمر رشيد، طلبه كثير من الفضلاء وحرصوا عليه، وليس هو بمبتدع ولا مُضِلّ، والله أعلم.



(١) «منهاج اليقين»: ٣٩٢.

عقوبة تارك الأدب

ولما كان الأدب بهذه المنزلة التي وضحتها، في المبحث السابق، كان المفرِّط فيه وتاركُه والمتهاون به قد ارتكب أمراً عظيماً، وسلك طريقاً عقيماً، ونادى على نفسه بالخسران، وباء بالإثم والعصيان، وقبل أن يهولك، أخي القارىء، ما أقوله اقرأ الآتي:

قال الجلاجليّ البصريّ[1]، رحمه الله تعالى:

«التوحيد موجب يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان موجبٌ يوجب الشريعة، فمن لا شريعةَ له لا إيمانَ له، ولا توحيد له، والشريعة مُوجبٌ يوجب الأدب، فمن لا أدبَ له لا شريعة له، ولا إيمان له، ولا توحيد له»[2].

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) «لباب الآداب»: ٢٢٧ بتوضيح الأستاذ أحمد شاكر، رحمه الله تعالى، وكلام الشيخ منصرف إلى نفي الإيمان والتوحيد الكاملين لا مطلق أصلهما، كما هو معلوم.

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«قال بعضهم:

الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبدالله بن المبارك، رحمه الله تعالى:

من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة»[1].

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى، فيما يشبه أن يكون قاعدة في هذا الأمر:

«أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجّى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم، تأويلاً، وإقبالاً على الصلاة، كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته،

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨١.

وضَرْبِ الناس له، ورميه بالفاحشة[١].

وتأمل أحوال كلِّ شقيّ ومغترٍّ ومُدْبِرٍ كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟!

وانظر أدب الصدِّيق، رضي الله عنه، مع النبي ﷺ، في الصلاة أن يتقدم بين يديه[٢]، فقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ» كيف أورثه مقامه والإمامة بعده! فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك. . .، بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قُدّام تنقطع فيها أعناق المطِيّ، والله أعلم»[٣].

«وقيل لـ«بقراط»[٤]: ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟

---

(١) يقصد ما كان من أمر جريج الراهب، وقصته مشهورة في الصحيح.

(٢) كذا في الأصل، وفي العبارة سقط، والله أعلم.

(٣) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

ويشير ابن القيم إلى الحديث المرويّ في الصحيح أن أبا بكر أمّ الناس عندما مرض رسول الله ﷺ، فلما شعر بمجيء رسول الله ﷺ تأخر ولم يرضَ أن يؤم.

(٤) من حكماء اليونان وأطبائهم، وكان قبل الإسكندر بنحو مائة سنة، وكان متألهاً متفلسفاً، انظر أخباره بالتفصيل في «نزهة الأرواح وروضة الأفراح»: ١٩٦ ـ ٢٠٢.

قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق»[١]، أي كالفرق بين الإنسان والحيوان؛ فإن المناطقة يطلقون على الإنسان: حيوان ناطق.

هذه النصوص تبين عقوبة المستهين بالأدب، سواءً أكان الأدب بمعناه العام الذي يتناول شعائر الدين كلها، أو هو الأدب بالمعنى الخاصّ الذي يتناول أحوالاً مخصوصة دلّت عليها الشريعة، ورغّبت في سلوك الأدب فيها، وكم رأينا من أشخاص أساؤوا الأدب فيما بينهم وبين الخلق فعجّل الله عقابهم!!، عافانا الله وإياكم من سوء الأدب.



(١) «لباب الآداب»: ٢٣٣.

حاجتنا إلى الأدب

قد يتساءل أحد الأشخاص ممن ينظر في عنوان الكتاب مستغرباً متعجلاً وهو لم يقرأه بعد:

أنحن بحاجة إلى مثل هذا؟! أو: هل يمثل هذا مشكلة حتى يُحتاجَ إلى تصنيف كتاب فيه؟!

وأظنه إن قرأ الكتاب عرف أهمية الموضوع ومدى افتقار مجتمعاتنا إلى تحقيق هذا السلوك فيها.

وألخص هنا في كلمات حاجةَ مجتمعنا إلى سلوك الأدب وتحقيقه بين الأفراد، وأهمية أن يسود هذا الخلق الكريم فيهم؛ إذ الأدب سلوك حضاريّ مطلوب لإقامة المجتمع الصالح، وإنه لمن الدعامات الأساسية لاجتماع الأفراد اجتماعاً سَوياً أن يسود بينهم سلوك الأدب؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: حصول الاطمئنان بين الناس:

وذلك يكون إذا اتصف الناس بمراعاة الأدب بينهم،

فحقوقهم مكفولة، وسمعتهم محترمة غير مُشوّش عليها، وأسماؤهم لا تُلاك في المجالس، ومكانتهم ليست مُنتقصة ولا ممسوسة بأذى، وأنه إن أخطأ أحدهم سُتر، وإن زَلّ عُذر، وإن اعتذر سُومح وقُبل.

ثانياً: الأدب ينزع الأحقاد:

ليس شيء يؤجج الحقد وينفخ في ناره مثل التعدي على الآخرين وعدم احترامهم، أو الشعور بأن شخصاً ما يستغل مكانة أو مركزاً أو جاهاً لإذلال الآخرين أو انتقاصهم أو التهجم عليهم، والحقد ينزع من الناس كل معاني الأخوة والألفة والمحبة، ويجعلهم أعداء يتربص بعضهم ببعض.

أما الأدب في التعامل وإنزال الناس منازلهم، وكفالة حقوقهم فإنه يورث الأُلفة، وينزِع البغضاء، ويسُل السَّخيمة من القلوب؛ فتصفو وتحنّ وترِقُّ فتسود المجتمعَ الأخوة والمحبة.

ثالثاً: الأدب مقياس لاستفادة الشخص من التوجيهات السلوكية لشريعة مجتمعه:

لكل مجتمع شريعة، وشريعتنا، ولله الحمد والمنة، هي الإسلام، والإسلام العظيم قد تكفّل

للمجتمع بالسعادة إن اتبع الآداب التي سنّها وشرعها الله ورسوله له، فسيادة الأدب بين الناس مقياس لاستفادتهم من هذه النصوص وقَبولهم لها، وعدم تطبيق هذه الآداب السلوكية هو مؤشر خطير على عدم تقبل الناس لهذه الآداب أو، على الأقل، دلالة على إهمالها.

وأهل الرأي في كل مجتمع يقيسون مدى كمال مجتمعاتهم ورقيّها بالقدر الذي حققه الأفراد من تطبيق دستورهم ومنهجهم، ثم يوصون، تبعاً لذلك، بتطوير أو بسن القوانين المحافظة على مجتمعاتهم ومناهجهم.

أمّا الإسلام فإنه قد أكمله الله تعالى للناس فلا يحتاج إلى نقد أو إكمال، ولكن يحتاج أهله إلى التمسك بتعاليمه لينهضوا بأنفسهم ومجتمعاتهم، ومن أعظم التعاليم الإسلامية الظاهرة التي يمكن أن يُقاس مدى تقبل الناس لها والأخذ بها في المجتمع الإسلاميّ هي التعاليم الأدبية السلوكية التي ترشد الناس إلى طرائق الأدب في التعامل والسلوك، فإذا وجدتَ مجتمعاً قد أهمل الأدب في التعامل والسلوك فاعلم أنه لما سواه أَضيعُ، ولغيره من المهمات أكثر إهمالاً وإهداراً، والله أعلم.

رابعاً: الأدب يحقق الأخوّة التي هي دعامة المجتمع الأساسية:

وهذا واضح لا لبس فيه؛ إذ أن أعظم موجبات الأخوة: الإيثار، والنَّصَفَةُ، والودّ، والأُلفة، وحفظ اللسان، والتوقير، والمواساة، والشفقة، والرحمة، وكل هذه وغيرها هي من الآداب التي حثّ عليها الشارع وأخذ بها العلماء والصالحون.

خامساً: الأدب طريق العلم النافع:

ما أحوج الأمةَ اليوم إلى العلم النافع الذي يأخذ بيدها إلى دروب التقدم والعزة والرفعة التي افتقدتها طويلاً، والطالب للعلم، أي علم كان، لن يناله بدون أن يتأدب أولاً، وإذا نال بعضاً من العلم بدون تأدب؛ فسيكون وبالاً عليه في الدنيا والآخرة؛ لأنه سيكون من جملة علماء السوء الذين قال فيهم ابن المبارك، رحمه الله تعالى:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ
وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها

وقد حذر السلف كثيراً من طلب العلم بدون أدب، وهاك بعضَ الكلمات النافعة في هذا الباب:

قال الإمام البُوْشَنجيّ[(١)]:

«من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله»[(٢)].

وقال الإمام يوسف بن الحسين الرازيّ[(٣)]، رحمه الله تعالى:

«بالأدب تتفهم العلم، وبالعلم يصح لك العمل»[(٤)].

وهذا الإمام الغزاليّ[(٥)]، رحمه الله تعالى، طلب

---

(١) الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون شيخ الإسلام أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجيّ الفقيه المالكيّ شيخ أهل الحديث في عصره في نيسابور، ولد سنة ٢٠٤، وارتحل شرقاً وغرباً ولقي الكبار، وجمع وصنّف، وسار ذكره، توفي سنة ٢٩١، رحمه الله تعالى، و«بوشنج» بلدة قريبة من هراة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٥٨١ ـ ٥٨٩.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ٥٨٦.

(٣) الإمام العارف شيخ الصوفية، أبو يعقوب، أكثر الترحال، وكان إمام وقته، وقد امتحن بسبب كلام صدر منه، توفي سنة ٣٠٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٤٨ ـ ٢٥١.

(٤) «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ١٥٠.

(٥) الشيخ الإمام البحر أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسيّ الشافعيّ الغزاليّ صاحب التصانيف والذكاء المفرط، تفقه وارتحل وصنّف ثم تزهّد وحجّ واعتزل مدة، ثم صنّف كتابه المشهور «إحياء علوم الدين»، وكان خاتمة أمره الإقبال على طلب الحديث ومجالسة أهله، توفي بـ(طوس) سنة ٥٠٥، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٣٢٢ ـ ٣٤٦.

العلم فحصل له نوع من الخُيَلاء والاستخفاف بالناس، ثم راض نفسه وأدّبها وهذّبها فحصل له العلم مع الأدب.

يقول عنه الإمام الذهبيّ، رحمه الله تعالى:

«عظُم جاه الرجل وازدادت حشمته بحيث إنه في دَست[١] أمير، وفي رتبة رئيس كبير، فأداه نظره في العلوم وممارسته لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة، والإنابة إلى دار الخلود، والتألّه والإخلاص وإصلاح النفس... وراض نفسه وجاهدها، وطرد شيطان الرعونة[٢]، ولبس زيّ الأتقياء...

ذكر هذا وأضعافه عبد الغافر[٣] في «السياق» إلى أن قال:

ولقد زرته مراراً وما كنت أَحْدُس[٤] في نفسي، مع

---

(١) الرياسة والصدارة، «تاج العروس»: (د س ت).

(٢) الرعونة: الحمق والاسترخاء، «لسان العرب»: (ر ع ن).

(٣) عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسيّ ثم النيسابوريّ، الإمام العالم البارع الحافظ صاحب كتاب «السياق في تاريخ نيسابور»، ولد سنة ٤٥١ وتفقه بإمام الحرمين حتى برع في المذهب الشافعيّ، وكان فقيهاً محققاً فصيحاً أديباً، توفي سنة ٥٢٩ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/٢٠ ـ ١٨.

(٤) أي أظنّ.

ما عهدت عليه من الزعارة[١] والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف كبراً وخيلاء، واعتزازاً بما رُزق من البسطة والنطق والذهن، أنه صار إلى الضد وتصفّى عن تلك الكدورات، وكنت أظنه متلفعاً بجلباب التكلف[٢]... فتحققت بعد السبر والتنقير[٣] أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون»[٤].

وكثيرةٌ هي الأخبار الواردة عن سلفنا في تأديب المتعلم وإرشاده إن قصّر في الأدب، وأجتزىء عن تلك الأخبار بإيراد خبرين أحدهما ذكره الذهبيّ في ترجمة القاضي شَريك[٥]، وهو أحد أعلام السلف، رحمه الله تعالى، حيث قال الذهبيّ:

«قال حمدان بن الأصبهانيّ[٦]:

---

(١) الشراسة وسوء الخلق، «المصباح المنير»: (ز ع ر).

(٢) أي أنه يتكلف التأدب وليس سجية له.

(٣) أي البحث والتدقيق.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٣٥٦.

(٥) شريك بن عبدالله النخَعيّ الكوفيّ القاضي بواسط ثم الكوفة أبو عبدالله. تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلاً فاضلاً عابداً شديداً على أهل البدع، مات سنة ١٧٧، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٢٦٦.

(٦) لم أقع له على ترجمة.

كنت عند شريك فأتاه بعض ولد المهديّ[١] فاستند [أي السائل] فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه!!، وأقبل علينا، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك.

فقال: كأنك تستخف بأولاد الخَليفة؟

قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه.

قال: فجثا على ركبتيه ثم سأله، فقال شَريك: هكذا يطلب العلم»[٢].

لو جعل كل عالم وصالح عمل شريك سنةً له كم سيبقى من الناس من يخاطب أولي الفضل والعلم كأنهم رِعاع همج؟!

والخبر الثاني ذكره الذهبيّ في ترجمة الحافظ ابن وارة الرازيّ[٣] وكان فيه زَهْوٌ وخُيَلاء، فدخل على

---

(١) المهدي هو محمد بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي الخليفة العباسيّ، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ٤٠٠ وما بعدها.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٣) محمد بن مسلم بن عثمان الحافظ الإمام المجود، أبو عبدالله بن وارة الرازيّ، أحد الأعلام. مولده في حدود سنة ١٩٠ وارتحل إلى الآفاق، وكان يضرب به المثل في الحفظ على تيه فيه، توفي سنة ٢٧٠، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨.

الشاذكونيّ[١]، أحد أئمة الحديث، «فقعد يُقعِّر في كلامه، فقلت له[٢]: من أي بلد أنت؟

قال: من أهل الريّ، ألم يأتك خبري؟ ألم تسمع بنبئي؟ أنا ذو الرحلتين.

قلت: من روى عن النبيّ ﷺ: **«إن من الشعر حكمة»**.

فقال: حدثني بعض أصحابنا.

قلت: من؟

قال: أبو نعيم[٣] وقبيصة[٤].

قلت: يا غلام، ائتني بالدِّرَّة[٥]، فأتاني بها، فأمرته فضربه بها خمسين.

---

(١) العالم الحافظ البارع، أبو أيوب سليمان بن داود بن بشر المِنقريّ البصريّ الشاذكونيّ. توفي سنة ٢٣٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٦٧٩ ـ ٦٨٤.

(٢) القائل هو الشاذكونيّ.

(٣) الفضل بن دُكَيْن عمرو بن حماد التيميّ بالولاء، أبو نعيم المُلائيّ، ثقة ثبت، ولد سنة ١٣٠ وتوفي سنة ٢١٨، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٤٤٦.

(٤) قبيصة بن عقبة بن محمد السُّوائيّ، أبو عامر الكوفيّ، توفي سنة ٢١٥ رحمه الله تعالى، المصدر السابق: ٤٥٣.

(٥) أي العصا.

وقلت: أنتَ تخرج من عندي، وما آمن أن تقول: حدثني بعض غلماننا»[1].

فالشاذكونيّ، رحمه الله تعالى، لم يرضَ من ابن وارة أن يقول: «حدثني بعض أصحابنا» وابن وارة إمام حافظ، وإنّما أراد منه أن يقول: حدثني بعض شيوخنا أو نحو ذلك؟!

فانظر كيف كانوا يعاقبون الأئمة الحفاظ إذا بدر منهم ما يخالف الأدب، يعاقبونهم وهم أئمة، فماذا كانوا يصنعون إذا ابتلوا بمثل ما ابتليت به الأمة في هذا الزمان من أنصاف العلماء الذين يقدحون في أئمة الدنيا قديماً وحديثاً؟!

بعد هذا الذي ذكرتُ من أسباب حاجتنا إلى الأدب، فقل لي بربك:

هل نرجو لمجتمعنا سعادة وفلاحاً واجتماعاً إذا غاب عنه الأدب؟!!

أو هل نرجو له قوة ومَنَعَة إذا كان أفراده يعادي بعضهم بعضاً، ويتمنّى بعض الناس زوال من يخالفونهم واندثارهم؟!!



(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/٩٣٦.

مراتب الأدب وتفاضل النّاس فيها

تتفاوت مراتب الأدب بحسَب المتأدَّب معه؛ إذ ليست تلك المراتب على درجة واحدة مع جميع الناس، وليس الأدب مع الله كالأدب مع أنبيائه، وليس الأدب مع الأنبياء كالأدب مع سائر الناس، وليس للتعامل مع الناس أدب واحد، بل لعلمائهم وكبارهم أدبٌ خاص يختلف عن الأدب مع سائرهم، وهكذا...

الأدب مع الله:

أما الأدب مع الله فهو رأس الأمر وعموده، وأهم ما يقدمه العبد في دنياه، قال ابن القيّم، رحمه الله تعالى:

«قال أبو علي الدقاق[1]:

---

(١) شيخ الصوفية الحسن بن عليّ بن محمد، أبو عليّ الأستاذ الدقاق الزاهد النيسابوريّ. توفي سنة ٤٠٦، رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١٢/ ١٦٥.

العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلى الله»[١].

وقال ابن القيم، أيضاً، موضحاً أنواع الأدب التي ينبغي للعبد التزامها مع ربه:

«فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه»[٢].

والأدب مع الله تعالى محمود على كل حال، ولكن بعض الآداب أقرب إلى رضاه سبحانه، فقد «رُوي عن ابن سيرين[٣]، رحمه الله تعالى، أنه سُئل: أيُّ الآداب أقربُ إلى الله؟

فقال: معرفة ربوبيته، وعملٌ بطاعته، والحمد لله

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/٣٧٦.

(٢) المرجع السابق، ومعنى النوع الثالث يدور على ترك المعاصي صغيرها وكبيرها، والله أعلم.

(٣) محمد بن سيرين الأنصاريّ، أبو بكر بن أبي عمرة البصريّ، ثقة ثبت عابد، كبير القدر، أحد التابعين، توفي سنة ١١٠، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٤٨٣.

على السراء، والصبر على الضرّاء»[١].

وإذا خفت ألا تستقصي جوانب الأدب مع الله تبارك وتعالى، أو أن تقصر في بعضها فاقرأ الإرشادين الفاخرِيْنِ الآتييْن:

قال ابن عطاءٍ[٢]، رحمه الله:

«الأدب: الوقوف مع المستحسنات.

فقيل: وما معناه؟

قال: أن تعامل الله تعالى بالأدب سرّاً وإعلاناً، فإذا كنت كذلك كنت أديباً»[٣].

وقال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«لا يستقيم لأحد الأدبُ مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٢٨.

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل الإسكندرانيّ الشاذليّ، كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل، وقد صحبه الصوفية في زمانه، وقد بالغ في القيام على شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهما الله تعالى، توفي كهلاً سنة ٧٠٩، انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٢٧.

وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقَبول الحق عِلماً وعملاً وحالاً»[١].

وبهذه الأقوال المتقدمة يتبين لنا أن أهم جوانب الأدب على الإطلاق هي التأدب مع الله سبحانه وتعالى، خاصة فيما يتعلق بتعريف ابن القيم، رحمه الله تعالى، الأخير للأدب، فصار الأدب بهذا التعريف رأسَ مالِ المسلم في هذه الحياة، وهو والله كذلك.

إذ ما الذي يرجوه في الآخرة رجلٌ أساء أدبَه مع الله تبارك وتعالى؟!، وهل يُرجى من مسيء الأدب مع الله سبحانه أن يُحسن أدبه مع خلقه؟!، فإن فعل فهو من التائهين الضالين، وقد رأيت أشخاصاً كثيرين يحرصون على كمال التأدب مع الخلق حتى أنهم يلتزمون، لأجل ذلك، قواعد ما يسمّى بـ«الإتيكيت» رجاء حصول ذلك لهم، فإذا نظرت لأدبهم مع الخالق تجده مختلاً اختلالاً عظيماً، وهذا من أعظم الغُبْن والتضييع.

الأدب مع رسول الله ﷺ:

وأما الأدب مع رسول الله ﷺ فهو كما قال ابن القيم:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٧.

«كمال التسليم له، والانقياد لأوامره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق»[(١)].

«ومن الأدب مع الرسول ﷺ ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٢)].

وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته»[(٣)].

هذا الأدب الذي تحدّث عنه ابن القيم، رحمه الله تعالى، هو الأدب مع سنة النبيّ ﷺ بمعناها العام الذي يشمل الدين كله.

أما الأدب مع شخصه الشريف، فقد كان الأئمة يعظمون رسولَ الله ﷺ ويتأدبون معه حال سماع اسمه الشريف ﷺ، فقد «كان مالك، رضي الله تعالى عنه، إذا ذكر النبيّ ﷺ يتغير وينحني.

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٧.
(٢) الحجرات: ١.
(٣) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٩.

وكان جعفر بن محمد [الصادق][١] إذا ذكر النبيّ ﷺ عنده اصفرّ لونه.

وكان ابن القاسم[٢] إذا ذكر النبيّ ﷺ يجف لسانه في فيه هيبة لرسول الله ﷺ»[٣].

أما حالنا اليوم فإن شأن الكثيرين أن يقولوا: قال محمد كذا، وسنة محمد كذا، ولا يظهرون أي تأدب مع الاسم الشريف.

قال ابن كثير[٤]، رحمه الله تعالى:

---

(١) شيخ بني هاشم، ولد سنة ٨٠ ورأى بعض الصحابة، وحدّث عنه خلق، وهو ثقة. كذب عليه الرافضة كثيراً وكان يمقتهم ويتبرأ منهم. توفي سنة ١٤٨ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٢٥٥ ـ ٢٧٠.

(٢) عبدالرحمٰن بن القاسم بن خالد العُتَقيّ، أبو عبدالله المصريّ، الفقيه صاحب الإمام مالك، ثقة، مات سنة ١٩١ رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٣٤٨.

(٣) «تذكرة السامع»: ٢١ ـ ٢٢.

(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير البصرويّ القرشيّ الدمشقيّ الإمام، ولد سنة ٧٠٠، وسمع من المشايخ، واشتغل بالحديث والتفسير والتاريخ، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، توفي بدمشق سنة ٧٧٤ بعد أن عمي، انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

«قال الضحاك[١] عن ابن عباس:

كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبيّ الله، وهكذا قال مجاهد[٢]، وسعيد بن جبير[٣].

وقال قتادة[٤]:

أمر الله أن يُهاب نبيُّه ﷺ وأن يُبجّل وأن يُعظّم ويسوّد...

---

(١) الضحاك بن مزاحم الهلاليّ، أبو محمد، كان من أوعية العلم، اختلف في لقيه ابن عباس، وأكثر أهل العلم على أنه لم يلقه، كان مقره ببلخ وسمرقند، توفي سنة ١٠٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/٥٩٨ ـ ٦٠٠، و«التقريب»: ٢٨٠.

(٢) مجاهد بن جبر المكيّ أبو الحجاج المخزوميّ بالولاء، ثقة، إمام في التفسير وفي العلم، مات سنة ١٠١ عن ٨٣ سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٥٢٠.

(٣) الإمام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد سعيد بن جبير بن هشام الأسديّ الوالبيّ بالولاء الكوفيّ، قرأ القرآن على ابن عباس، رضي الله عنهما، وقتله الحجاج سنة ٩٥ لخروجه في فتنة ابن الأشعث، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/٣٢١ ـ ٣٤٣.

(٤) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسيّ أبو الخطاب البصريّ. ثقة ثبت، يقال ولد أكمه، أخرج عنه أصحاب الكتب الستة. توفي سنة بضع عشرة ومائة، انظر «التقريب»: ٤٥٣.

وقال مقاتل[١] في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[٢]، يقول:

لا تسمّوه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبدالله، ولكن شرفوه، فقولوا: يا نبيّ الله، يا رسول الله».

ثم ذكر ابن كثير أن «هذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده»[٣].

وكان الأئمة يحرصون على الأخذ عن المتأدب مع النبيّ ﷺ، فقد قال مالك، رحمه الله تعالى:

«رأيت أيوب السَّخْتِيَانيّ[٤] بمكة حجتين، فما كتبت عنه، ورأيته في الثالثة قاعداً في فناء زمزم، فكان إذا ذكر النبيّ ﷺ عنده يبكي حتى أرحمه، فلمّا رأيت ذلك كتبت عنه»[٥].

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزديّ الخراسانيّ، أبو الحسن البلخيّ، نزيل مرو، اتهم بالكذب والتجسيم وهجر، توفي سنة ١٥٠، انظر «التقريب»: ٥٤٥.

(٢) النور: ٦٣.

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) أيوب بن أبي تميمة كَيْسان السَّخْتِيَانيّ، أبو بكر البصريّ، ثقة ثبت حجة، من كبار الفقهاء العباد، مات سنة ١٣١ عن خمس وستين سنة، انظر «التقريب»: ١١٧.

(٥) «صفحات في أدب الرأي»: ٥٤، ونقله المصنف عن مقدمة «إسعاف المُبطّا» للسيوطي، رحمه الله.

فانظر إلى أدب مالك وأيوب، رحمهما الله تعالى، حال ذكر اسمه الشريف ﷺ، فكيف إذاً يكون أدبهم مع سنته وشرعه ﷺ؟!.

أما اليوم فقد قلّ هذا الأدب وندر المتمسكون به حتى أنه قد أفتى بعض الأفاضل، وآسف لخرق أسماعكم بهذا الهُراء، بأنه ليست لرسول الله ﷺ مِنّةٌ في رقابنا، وإنّما المنة لله وحده، ونسي قولة الأنصار، رضي الله عنهم: «لله ولرسوله المنّ والفضل»(١)، قالوا ذلك عندما عاتبهم رسول الله ﷺ بعد توزيع غنائم حنين، ونسي قولَ رسول الله ﷺ: **«إنّ من أمنِّ الناس عليّ في صحبته، وماله، أبا بكر»**(٢).

فإذا أثبت رسول الله ﷺ منّةً لفرد من أمته عليه ﷺ أفلا يكون له المنة علينا وهو خير البشر بأبي هو وأمي ﷺ؟!

وقد وصل بعض الناس، بدعوى عدم الغلوّ في إطراء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وقال صاحب «مجمع الزوائد» ١٠/٣٣: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق، وقد صرّح بالسماع» اهـ. بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاريّ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

الرسول ﷺ ومحبته، إلى الجفاء في شأن هذا الرسول العظيم، وذلك أنه عندما عُزّي أحدهم بوفاة قريبه وأُمر بأن يتذكر مصيبة الناس برسولهم ﷺ لتهون عليه مصيبته، وهذه سنة أخبرنا بها ﷺ قبل وفاته، عندما عُزِّي بذلك نبز المعزِّي بأنه صوفيّ مبتدع.

ولا أدري ما شأن الصوفية والابتداع بهذا العمل الذي هو مشروع مسنون؟! لكن مرجع ذلك إلى الجفاء والجهل، عافانا الله وإياكم منهما.

الأدب مع الخلق:

وأما الأدب مع الخلق فهو متفاوتٌ، كما أسلفتُ، فلا بد من أن يعامل كلٌّ واحد بما يليق به، قال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«فمع الوالدين أدب خاص، وللأب منهما أدبٌ هو أخص به، ومع العالم أدبٌ غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته»[1].

وقال ابن المقفع، رحمه الله تعالى:

«وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين مختلفتين مُتباينتين، ويلبس لهما لباسين مختلفين:

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩٠.

فطبقة من العامّة يلبس لهم لباس انقباض، وانحجاز، وتحفُّظٍ في كل كلمة، وخطوة.

وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد، ويلبس لباس الأنَسَة واللطف والبَذلة والمفاوضة، ولا يُدخل في هذه الطبقة إلا واحداً من ألف كلهم ذو فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السر، ووفاء بالإخاء»[١].

وما آفة الناس إلا أن يُسووا بين الناس كلهم في الانبساط أو الانقباض.

ولله دَرُّ الإمام الشافعيّ حيث يرشد تلميذه الإمام يونس بن عبدالأعلى[٢] فيقول:

«يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مَجْلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط»[٣].

---

(١) «الأدب الصغير»: ٢٢٨.

(٢) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصَّدَفيّ، أبو موسى المصريّ، ثقة، توفي سنة ٢٦٤ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٦١٣.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤١.

الأدب مع النفس:

وأما أدب الإنسان مع نفسه فهو كذلك متنوِّع متفاوت، قال ابن القيم، رحمه الله تعالى:

«فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب»[١].

وهذا الأدب قد أكثر الأئمة من التصنيف فيه والتنبيه عليه، وقد جاءت فيه آيات وأحاديث كثيرة تحث عليه وتأمر به.

تلك كانت جملةً من آداب الناس مع الخالق، ومع الرسول ﷺ، ومع البشر، وآدابهم في أنفسهم خاصة.



(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩٠.

تفاوت البشر في مراتب الأدب

ولمّا كان البشر يتفاوتون في تحقيق هذه الآداب تفاوتاً بيناً فقد اختلفت مراتبهم تبعاً لذلك، وارتفعت أقدارهم أو انخفضت بموجب ما قرروه من آداب في أنفسهم ومن ثَمّ التزموها وعملوا على تزيين حياتهم بها.

قال أبو نصر الطُّوسيُّ السرّاج[١]، رحمه الله تعالى:

«الناس في الأدب متفاوتون، وهم على ثلاث طبقات:

أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصيّة من أهل الدين.

---

(١) عبدالله بن علي السرّاج الطوسيّ، أبو نصر، صاحب كتاب «اللمع في التصوف»، توفي سنة ٣٧٨ رحمه الله تعالى، **انظر** «كشف الظنون»: ٢/ ١٥٦٢.

فأمّا أهل الدنيا فإن أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعار العرب، ومعرفة الصنائع.

وأما أهل الدين فإن أكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وطهارة الأسرار، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، وتجريد الطاعات، والمسارعة إلى الخيرات.

وأما أهل الخصوصية فإن أكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعقود بعد العهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، واستواء السرّ مع الإعلان، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القُرب»[١].

إذا عُلم هذا فينبغي للعاقل أن يضع هذه المراتب الأربع نصب عينه دَوْماً: الأدب مع الله سبحانه، والأدب مع رسوله ﷺ، والأدب مع الخلق، والأدب مع النفس، ومن ثَمّ يحرص على بلوغ الدرجة العليا في كلّ من هذه المراتب حتّى يسعد دُنيا وأُخرى.

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٣١، و«مدارج السالكين»: ٢/ ٣٧٧.

فإنّ الأدب على الأديب أجمل من الحليّ على المرأة الجميلة، هذا في الدنيا.

أمّا في الآخرة فإن الأدب في معناه العام، الذي هو الأدب في أخذ الدين كله هو الذي يرفع صاحبه درجات، جعلنا الله وإياكم من أهل الأدب.



صور من حسن الأدب

لم يكن بدٌّ من النظر إلى أحوال الصالحين لمعرفة أدبهم، ومقدار الكمال الذي وصلوا إليه في هذا الباب، فإنّه مما يعين طالب الأدب على تحقيق مطلوبه معرفةُ ذلك والاطِّلاع عليه، ومن ثَمّ محاولة التزامه والتحلِّي به.

أولاً: أدب الأنبياء الكرام:

سادات الصالحين هم الأنبياء، وسيدهم هو رسول الله محمد ﷺ، وقد كان لأدبه الرفيع وحسن خلقه أعظم الأثر في كمال بناء دولة الإسلام الأولى، وكفى بالله واصفاً له:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[١].

ويحدثنا ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام عن مشهد عُلويّ جليل، مشهدِ من مشاهد المعراج يظهر فيه

---

(١) القلم: ٤.

مدى تأدب النبيّ ﷺ مع ربه سبحانه:

«جرت عادة القوم أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ حين أراه ما أراه:

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾[1]، وأبو القاسم القُشيريّ[2] صدّر باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت جانباً، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وشماله أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة.

فكمال إقبال الناظر على المنظور أنه لا يصرف بصره عنه يَمنة ولا يَسرة ولا يتجاوزه.

---

(١) النجم: ١٧.

(٢) الشيخ الإمام الزاهد عبد الكَريم بن هوازن بن عبد الملك القشيريّ الشافعيّ، المفسر، صاحب «الرسالة»، ولد سنة ٣٧٥، وكان عديم النظير في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، له عدة مصنفات، توفي بنيسابور سنة ٤٦٥، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٢٢٧ ـ ٢٣٣.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية، قدّس الله روحه»[١].

ثم قال: «فإنّه أقبل على الله بكليته، وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه»[٢].

وقال ابن القيم، أيضاً، مبيناً أدب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام:

«وتأمّل أحوال الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونةً بالأدب قائمة به.

قال المسيح، عليه السلام:

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾[٣]، ولم يقل: لم أقله،

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٨٣.

(٣) المائدة: ١١٦.

وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرّه فقال:

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾[(١)].

ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختصّ به سبحانه فقال:

﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾[(٢)].

ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلِّها فقال:

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[(٣)]».

ثم أفاض ابن القيم، رحمه الله، في ذكر معاني الأدب في هذه القصة[(٤)].

ثمّ عَرَّج على قصة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فذكر ما في خطابه ربَّه من الأدب فقال:

«وكذلك قولُ إبراهيم الخليل ﷺ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ

---

(١) المائدة: ١١٦.

(٢) المائدة: ١١٦.

(٣) المائدة: ١١٦.

(٤) انظر «مدارج السالكين»: ٢/٣٧٨ ـ ٣٧٩.

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[١]، ولم يقل: وإذا أمرضني؛ حفظاً للأدب مع الله».

كذلك عرج ابن القيم، رحمه الله تعالى، على قصة موسى، عليه الصلاة والسلام، حيث قال:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٢]، ولم يقل: أطعمني.

وقول آدم، عليه السلام:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣]، ولم يقل: رب قدرت عليّ وقضيت عليّ.

وقول أيوب، عليه السلام:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٤]، ولم يقل: عافني واشفني.

وقول يوسف لأبيه وإخوته:

﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ

---

(١) الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠.

(٢) القصص: ٢٤.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) الأنبياء: ٨٣.

بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾[١]، ولم يقل: أخرجني من الجُبّ؛ حفظاً للأدب مع إخوته ألا يُخجلهم بما جرى في الجبّ.

وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[٢]، ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة؛ أدباً معهم.

وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يُضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه[٣] فقال:

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾[٤]، فأعطى الفُتُوَّةَ والكرم والأدب حقَّه.

ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم»[٥].

وقد أورد الإمام فخر الدين الرازيّ[٦] قصة موسى،

---

(١) يوسف: ١٠٠.
(٢) يوسف: ١٠٠.
(٣) أي إخوة يوسف.
(٤) يوسف: ١٠٠.
(٥) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨١.
(٦) محمد بن عمر بن الحسن التيميّ البكريّ، إمام المتكلمين، ولد سنة ٥٤٣، واشتغل على والده وغيره، وانتشر اسمه وقصد من الأرض لطلب العلم، وكانت له اليد الطولى في الوعظ باللسانين العربيّ والفارسيّ. توفي بهراة سنة ٦٠٦ =

عليه الصلاة والسلام، مع الخضر، رضي الله عنه، ثم استنبط منها عبراً وفوائد، فكان ممّا استنبطه من القصّة عددٌ من آداب الخطاب التي استعملها، عليه الصلاة والسلام، لمخاطبة الخضر، رضي الله عنه، فقال الفخر، رحمه الله تعالى:

«اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى، عليه السلام، راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر:

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾[1].

وثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾[2]، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل[3] وعلى أستاذه بالعلم.

= رحمه الله تعالى، انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/ ٨١ ـ ٩٦.

(١) الكهف: ٦٦.

(٢) الكهف: ٦٦.

(٣) أي بالجهل في المسائل التي اختص بها الخضر، ولو عبّر الرازيّ بغير هذه الكلمة لكان أولى.

ورابعها: أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، وصيغة (من)[1] للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغنيّ أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله.

وخامسها: أن قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علّمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

وسابعها: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليه في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه حرفاً.

وثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله،

---

(١) من داخلة في قوله: «ممّا».

فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه، عليه السلام، أتى بها لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض.

وتاسعها: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

وعاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أنه[1] نبيُّ بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه، عليه السلام، مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه، عليه السلام، آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة،

(١) أي موسى، عليه الصلاة والسلام.

وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدَّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

والحادي عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً، ثم طلب ثانياً أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثاني عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم»[1].

ثانياً: أدب الصالحين[2]:

أما أدب سائر الصالحين فأمرٌ عُجاب، يعجب المرء منه ثم يزول عجبه عندما يعلم أن هذا الأدب الذي تَحلَّوْا به هو ميراث المصطفى ﷺ وصحبه الكرام.

وفي التاريخ الإسلاميّ نماذج عطرة من أدبهم، فهذا العباس، رضي الله عنه، يُسأل:

«أنت أكبر أو النبي ﷺ؟

---

(١) «مفاتيح الغيب»: ١١/ ١٥٢.

(٢) هذه الصورة الثانية لصور من حسن الأدب.

قال: هو أكبر، وأنا ولدت قبله!!»[١].

فهذه دقيقة في الأدب قَلّما يُلتفت إليها؛ إذ لو قال العباس، رضي الله عنه، أنا أكبر منه لأوهم كبَر المقام، ومُراده كبر السنّ.

وقد ورث منه ابنه العالمُ البحر عبدالله بن العباس الأدب، فقد قام إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه، فقال زيد: تنحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا[٢].

هذا وابن عباس من كبار علماء الصحابة، رضي الله عنهم، ومع ذلك فإنه يقول لزيد، رضي الله عنه: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

وقال أبو زُرْعَة[٣]:

«كنت عند أحمدَ بن حنبل، فذُكر إبراهيم بن طهمان[٤]، وكان متكئاً من علة، فجلس، وقال: لا ينبغي

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق: ١٠/ ١٧٥.

(٣) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد، أبو زرعة الرازيّ إمام حافظ، ثقة مشهور، مات سنة ٢٦٤ وله أربع وستون سنة، انظر «التقريب»: ٣٧٣.

(٤) إبراهيم بن طَهْمان الخراسانيّ، أبو سعيد، سكن نيسابور ثم مكة، ثقة، توفي سنة ١٦٨، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٠.

أن يُذكر الصالحون فيُتَّكأ»[١].

وقال إبراهيم بن الأشعث[٢]:

«رأيت سفيان بن عُيَيْنة[٣] يقبل يد الفُضَيل[٤] مرتين»[٥].

وجاء الإمام مسلم بن الحجّاج[٦] إلى الإمام البخاري[٧]، رحمهما الله تعالى، فقال له:

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/٦٦٦.

(٢) إبراهيم بن الأشعث البخاريّ خادم الفضيل بن عياض، له ترجمة موجزة في «الجرح والتعديل»: ٢/٨٨.

(٣) الإمام سفيان بن عيينة بن ميمون الهلاليّ، أبو محمد الكوفيّ ثم المكيّ، ثقة حافظ، فقيه إمام حجة، توفي سنة ١٩٨ وله ٩١ سنة، انظر «التقريب»: ٢٤٥.

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود التميميّ، أبو علي الزاهد المشهور، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة، عابد إمام، مات سنة سبع وثمانين ومائة، انظر «التقريب»: ٤٤٨.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/٩٠٣.

(٦) الإمام الكبير الحافظ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيريّ النيسابوريّ، ولد سنة ٢٠٤، وسمع على خلق وسمع منه خلق كثير، توفي سنة ٢٦١ بنيسابور رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/٥٥٧ ـ ٥٨٠.

(٧) الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعفيّ بالولاء، ولد سنة ١٩٤ ببخارى، وطلب العلم صغيراً، ثم ارتحل وعمره ١٦ سنة، وابتدأ التصنيف وعمره=

«دعني أُقبِّل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله»[١].



= ١٨ سنة، وله مصنفات نفيسة، وهو أحد حفاظ الإسلام الكبار، توفي سنة ٢٥٦ في خَرْتَنْك، قرية من أعمال سمرقند، ودفن بها، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٣٩١ ـ ٤٧١.

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٩٤.

ذكر أنواعٍ من الأدب تمس الحاَجةُ إليها

قد أكثر العلماء والأدباء من الكتابة في الأدب، وصنفوا فيه مصنفاتٍ مُطوّلةً وموجزة، ضمنوا فيها مئات الأنواع من الأدب في مختلف الحالات التي يُحتاج فيها إليه، فمن أدب شخصيّ سلوكيّ تدرّج من أدب دخول بيت الخلاء إلى أدب تعامل الناس فيما بينهم على تنوعه واختلافه.

واهتم الإسلام العظيم، من جملة اهتماماته العظيمة، بأدب العبادات والمعاملات، ويكفي في هذا أن الإمام ابن القيم، رحمه الله تعالى، قد أوصل الآداب في الصلاة فقط إلى مائة أدب[1]، وفي هذا كفايةٌ لِمَا مهدتُ لذكره، ألا وهو صعوبة الإتيان، في هذا البحث، بالآداب جميعها التي سنّها الإسلام العظيم، وكثيرٍ من الآداب التي سنّها وعمل بها رجالاته العظام.

---

(١) «مدارج السالكين»: ٢/ ٣٩٢.

ولذلك رأيت أن آتي ببعض الآداب التي أظنُّ أنّ بعضاً منها قد ينقصنا أو قد يغيب عنّا، فالمجيء بتلك الآداب المختارة مختصرة ومركزة سوف يعين، إن شاء الله تعالى، على إتمام مقصود البحث، لا سيما أنني سأذكر حال عرضي لتلك الآداب بعض الوقائع التي تنافي الأدب المذكور والتي هي، عندي، موثّقة، قد عايشت بعضها، وسمعت ببقيّتها سَماعاً موثّقاً.

ولست أريد من ذكرها تعميقَ الجروح أو التركيز على الآلام، ولكنني أريد أن نعتبر فنرتفع بإخائنا عن هذا المستنقع الآسن، ولذلك حرصت على ألا أسمي شخصاً أو أذكر من صفاته وأحواله ما قد يُشيع معرفته عند الناس، والله أعلم بنيتي وقصدي.

وسأحرص حال ذكري لبعض أنواع الأدب وأمثلته على عدم سلوك المسالك الموصلة إلى تحقيقها، سأحرص على ألا آتي إلا بما هو واقع في مجتمع أهل الفضل والمستمسكين بهذا الدين الداعين إليه، وأما مجتمعات العوامّ والرِّعاع فإن أمرَهم أهونُ من هذا؛ إذ قد فُرغ من عدم اعتبارهم في مثل هذا الباب، ويجب الحكم على المجتمع بحال صفوته ومُقَدَّميه لا حال الرعاع والهمج فيه، لئلا يُظلم أهل الفضل في تقويم أحوالهم بما عليه سائر الناس، والله أعلم.

أولاً: أدب الخلاف:

قد كُتب في هذا الأدب الرفيع عددٌ من الكتب، وقَعَّد علماؤنا الأوائل كثيراً من القواعد التي كانت دليلاً وهادياً للأجيال على مرّ العصور، فعاش أسلافنا من أهل السنة والجماعة في وئام ووفاق مُرْضٍ إلى حدٍّ كبير.

وفي هذا العصر تأجّج الخلاف وعظُم بين أفراد الأمّة، هذا الخلاف الذي له جذور تاريخيّة، ومؤثّرات عصرية، من أهمها قُوّة وسائل الإعلام التي ربطت بين أرجاء العالم الإسلاميّ فأصبحت الفتاوى المختلفة، والتقريرات المؤثرة من المحيط إلى المحيط تنتقل في اليوم نفسه، أحياناً، إلى المسلمين مسببةً لهم كثيراً من البلبلة وعدم الاتفاق نظراً لاختلاف المدارس الفقهية والعقديّة التي كانت محصورة، فيما مضى، في مجتمعات محددة ومعروفة، وإنْ كتب لها الانتشار، فإنه في حدود ضيقة، وفي أوساط علميّة محددة، وليس بين عوامّ المسلمين كما يحصل اليوم.

ويؤجِّج من هذا الخلاف، أيضاً، بروز كثير من الناشئة الذين ليس عندهم العلم الكافي ولا الخبرة للتصدّي لأمر عظيم ألا وهو التوجيه الإسلاميّ للمجتمع في كل مناحيه وليس في الفتاوى فَحسْب، فكان ممّا صنعه هؤلاء الناشئة أن ساهموا، بقوة، في تعميق الخلاف بين

المسلمين، بل إثارة جذور الخلاف الماضي الذي ظُنّ أنه قد فُرغ من البحث فيه.

كل ذلك أدى إلى أن يفزع العلماء والمفكرون إلى كتابة عشرات الأبحاث التي عالجت، على الورق، كثيراً من الجوانب المهمة، ولا زالت تلك الأبحاث بحاجة إلى التطبيق العمليّ الذي، بدون تشاؤم، يتعثّر كثيراً نتيجة لعواملَ كثيرةٍ لا سبيل لذكرها في هذا البحث الموجَز.

وإليك، أخي القارىء، بعضَ الوقائع المؤلمة التي تَشِي بما عليه مجتمعنا من سوء تطبيق، في أحيان كثيرة، لهذا الأدب الرفيع، وغرضي من ذكر هذه الوقائع أن نعتبر بها فنعفّ عن أمثالها ونزجر من يجرؤ على ارتكابها:

١ ـ إمام في مسجد يَتقدّم ليؤمّ النّاس فيأتي شخص من خلفه ليعيقه عن التقدّم بطريقة فظة غليظة، ويأخذ مكانه إماماً للنّاس بحجة أنه أولى منه بالإمامة، علماً بأنه لا يحفظ القرآن، وذلك الإمام المنحّى هو الحافظ المُجيد، وقد تمّ ذلك نظراً للخلاف بينه وبين الإمام في بعض الجوانب التي ظنّ أنه لا يسوغ غفرانها والمسامحة فيها، أما حال المصلين وما سيحدثه ذلك التصرف فيهم وفيمن سمع الحادثة فذلك آخر اهتمامات ذلك الرجل المريض.

٢ ـ رجل يشي باجتماع بريء لأحد التجمعات

الإسلامية التي اختلف معها اختلافاً لا يؤديه إلى فعل ذلك شرعاً وعقلاً، ولكن أدب الخلاف اضمحل عنده ووصل إلى درك سحيق جعله يرتكب تلك الفعلة الدنيئة عُرفاً، الآثمةَ شرعاً.

٣ ـ رجل تتلمذ على شيخ ودرس القرآن وبعض العلوم على يديه، فهو إذاً شيخه وأستاذه، فكان أن اختلف معه في مسألة، قد فُرغ من أنه يسوغ فيها الخلاف، فما كان منه إلا أن نفض يديه من أستاذه وشيخه وأصبح همه الوحيد هو التشهير به عند الخاصة والعامّة، بل سعى بكل جهده أن يخرج أستاذه من مسجده الذي هو إمامه فتكللت مساعيه، غير الحميدة، بالنجاح.

٤ ـ اتفق مجموعة من صالحي الدعاة مع مدير مدرسة أن يتخذوا من مدرسته مركزاً صيفياً لاستيعاب الطلاب وحفظهم من الزيغ والملل، فما كان من فئة مريضة إلا أن حذّرت المدير من إخوانهم الذين اختلفوا معهم في بعض الجوانب التي يسوغ فيها الخلاف، وخوّفته عاقبة ضلال إخوانهم، وتأثيرهم السيء على الطلاب في زعمهم، وهو محض افتراء، فتوجس المدير خوفاً، ومعه كل الحق في الخوف على الطلاب الذين هم أمانة في عنقه يُسأل عنها يوم القيامة، وقام بسحب موافقته السابقة، وأوكل إدارة المركز لمن وشوا بإخوانهم ظلماً وبهتاناً، فهل رأيتم كيف

يصل الأمر بمن فرط في مراعاة أدب الخلاف؟!!

هذه بعض الصور المؤلمة التي لا يستطيع القلب أن يسترسل في ذكرها وبيانها، ولولا الحاجة إلى التنبيه عليها، ليُحذر من مثيلاتها، ما ذكرتُها.

ولو ذكرت صور أدب الخلاف عند سلفنا لأطلت وأتيت بالعجب، ولكن حسبي من ذلك أن أورد مثالين ذكرهما الحافظ الذهبيّ، رحمه الله تعالى، أما الأول:

فقد «قال يونس الصَّدَفيّ: ما رأيت أعقل من الشافعيّ، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثمّ قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قلت [أي الذهبي]: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون»[(١)].

والآخر ما قاله أحمد بن حفص السعديّ[(٢)]: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق[(٣)]، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤٢.

(٢) له ترجمة موجزة في «ميزان الاعتدال»: ١/ ٩٤١ فانظرها.

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظليّ النيسابوريّ المعروف بابن راهويه، الإمام الكبير، شيخ المشرق سيد الحفاظ، أبو=

يخالف بعضهم بعضاً»[١].

ثانياً: أدب الإعْذار واجتناب سوء الظنّ:

هذا الأدب من أعظم الآداب المحافظة على بُنية المجتمعات واستمرار الوئام فيها، ويكفي أنّ هَذا الأدب قد شرعه الله تعالى حيث قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٢].

ولا وفاق ولا وئام ولا محبة بدون ترسيخ هذا الأدب العظيم بين أفراد المجتمع.

وليس من غرض هذا البحث إلا أن يؤكد على هذا الأدب ويبرز بعض الأحداث المخالفة له للاعتبار والعظة، أمّا قواعد هذا الأدب وطرائق تطبيقه فله مجال آخر.

وهذه صور من الإخلال بهذا الأدب:

= يعقوب، ولد سنة ١٦١، وسمع من خلق وسمع منه خلق كثير، كان عاقلاً عظيم الحفظ عالماً فقيهاً، من أئمة الاجتهاد. توفي سنة ٢٣٨، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/٣٥٨ ـ ٣٨٣.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٠.

(٢) الحجرات: ١٢.

١ ـ سُئل رجل عن رأيه في الإمام الفلانيّ، فأبدى ما يُفهم منه أنه مُبتدع؛ وعندما سُئل عن السبب قال: إنه قد «شمّ» من حديثه البدعة!، وكان هذا هو السببَ لهذه الوصمة لا غير، وهذا الرجل المسؤول مقدم عند بعضهم مسموع الكلمة فيهم.

فبربكم هل سمعتم عن جرح مبنيّ على مثل هذا الهُراء؟!!.

٢ ـ دافع عالم فاضل عن فئة أخطأت بعض معالم المنهج الصحيح، ولكنها لا زالت في دائرة السنّة والجماعة، وكان دفاعه ذلك بسبب أن واحداً من المشايخ أفرط في ذمهم إلى الغاية، فظنّ المُفْرط أن هذا العالم منهم فأكد له أنه على خلاف ذلك، وأنه لا يسلك مسلكهم، فلم يعتمد إلا ما ظنّه وارتآه، فسلك في الوشاية بهذا الفاضل مسالك أدت إلى إبعاده عن مواقع قيادية في حياته العلمية.

٣ ـ رجل تقدم لامتحان إلى لجنة من اللجان، فسئل: أين حفظت القرآن؟ ومن هم رِفقتك؟ فلما أجاب ظُنّ به أنه مبتدع لسوء ظن اللجنة بذلك المسجد وأهله؛ فحُرِم من الغرض الذي أدّاه إلى المثول أمام تلك اللجنة الظالمةِ له بظنِّها الخاطىء فيه أنه من أهل البدع!!.

٤ ـ وآخر تقدم لجامعة من الجامعات، فلما علم

بعض إدارييها أنه مزكّى من طرف فلان ظُنَّ به أنه مبتدع، وحُرِم من القَبول لأول الأمر، ولم يُسمح له بالانتظام في سلك تلك الجامعة إلا بعد لأيٍ[١] شديد.

هذه بعض الصور على الإخلال بأدب اجتناب سوء الظن بالناس، نتج عنها كما رأيت، أخي القارىء، عددٌ من الحوادث المؤلمة التي ليس لها مُبرر، ولا أصلٌ صحيح تستند إليه، والخطر في هذا الأمر أن الظالم والمظلوم سيمثلان أمام علام الغيوب ليقضي بينهما بالحق، فالأمر ليس فقط إخلالاً بأدب من الآداب، لكنه قد يُهلك صاحبه يوم العرض الأكبر بسبب الظلم الذي ارتكبه.

ثالثاً: الأدب مع العلماء والكبار وأهل الفضل:

علماء الأمة وكبارها وأهل الفضل فيها هم صفوتها ورجالاتها الذين يُرجى منهم إعادة مجد الأمّة التَّليد السليب، وهم ورثة أربعة عشر قرناً من العمل الدؤوب لرفعة هذه الأمة وقيادتها للعالمين، وهم البرهان الحقيقيّ على نجاح المنهج الإسلاميّ في التطبيق العمليّ؛ إذ بوجود هؤلاء الأفذاذ، الذين هم صفوة البشر على الحقيقة، تُقاس مدى قدرة هذا المنهج على إخراج رجال هم أقرب إلى الكمال البشريّ من أي نماذج أخرى على هذه البسيطة، بل

---

(١) أي صعوبة.

ليس هناك أفعل تفضيل بين رجالات المنهج الإسلاميّ وما عداه من المناهج.

إذا عُلم هذا، أفيصح أن يعامل هؤلاء بغير المستحق لهم من التكريم والإمامة والتقديم بينما صعاليك البشرية يُقدّمون ويقودون ويُكرمون؟!، وإن صح هذا من التائهين عن منهج الإسلام فلا يصح من القائمين عليه المعتزين به، الحاملين للوائه.

وإذا نظرتَ إلى الأمّة اليوم وجدت هذا الأدب مع أولي الفضل والعلم يتفاوت من مجتمع لآخر، لكن هناك مُنغِّصات، في كل المجتمعات، تكدر هذا الأدب وتهدر مكانة أولي الفضل والعلم في النفوس، ومن الأمثلة على هذه المنغصات:

١ ـ عالم يحاضر في جمع، ثمّ بعد الفراغ من محاضرته يتوجه ذلك الجمع إلى المسجد لأداء الصلاة، وبعد الفراغ يفاجأ الجمع بمن يقوم منددًا بهذا العالم مبينًا مساوئه، في زعمه، فيتأثر ذلك العالم ويبكي، فيقوم عالم آخر ليدافع، فيكاد ذلك الاشتباك يُفسد الجو العلميّ الإيمانيّ الذي عاشه ذلك الجمع المدهوش بما حدث لشيخه.

٢ ـ عالم له قدره وإمامته يتأخر عن طلبته، الذين

يدرسون عليه في حلقة خاصة، بسبب ظروف ألمّت به، فما كان من بعض طلبته إلا أن لامه بجفاء على ذلك التأخير، وأنهم قد انتظروه طويلاً، فاحتمل ذلك الجفاء منهم بصدر رحب.

ولو أن الشيخ الفاضل عامل هذا الجافي بما كان السلف يعاملون أمثاله من الطلبة لتأدب وكان ذلك عبرةً لأمثاله.

وقد أورد ابن جماعة[1] علاجاً لمثل هذا الطالب المسيء فقال، رحمه الله تعالى، مبيناً واجب الشيخ مع من يسيء الأدب أو يسقط الحُرمة:

على الشيخ أن يُعرِّض «بالنهي عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به ولا مُعيِّن له، فإن لم ينتهِ نهاه عن ذلك سراً، ويكتفي بالإشارة مع من يكتفي بها، فإن لم ينته

---

(١) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانيّ الحمويّ الشافعيّ، ولد بحماة سنة ٦٣٩ وتفقه ومهر في الفنون ثم ولي قضاء القدس ثم الشام، ودرس بمدارس في مصر بعد أن تولى قضاءها، كان ذكياً متفنناً، ورعاً صيِّتاً، وافر العقل، متقشفاً مع حسن خلق وقوة في الحق، توفي سنة ٧٣٣ بمصر بعد أن عمي مدة، انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

نهاه عن ذلك جهراً، ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره، ويتأدب به كل سامع، فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع، ولا سيما إذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته»[١].

وقد كانت مجالس العلم على خلاف ما نحن عليه اليوم، ولبيان ذلك فإني أهدي إلى أبصاركم وأسماعكم صوراً لما كانت عليه هذه المجالس، ووصية لما ينبغي أن تكون عليه:

أما مجالسهم فقد قال أحمد بن سنان[٢]:

«كان عبدالرحمٰن[٣] لا يُتحَدث في مجلسه، ولا يُبرى قلمٌ، ولا يقوم أحد، كأنما على رؤوسهم الطير أو كأنهم في صلاة»[٤].

---

(١) «تذكرة السامع»: ٦١.

(٢) أحمد بن سنان بن أسد، أبو جعفر القطان الواسطيّ، ثقة حافظ، مات سنة ٢٥٩، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٨٠.

(٣) عبدالرحمٰن بن مهدي بن حسان العنبريّ بالولاء، أبو سعيد البصريّ، ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، قال ابن المدينيّ: ما رأيت أعلم منه، مات سنة ١٩٨ عن ٧٣ سنة، رحمه الله تعالى، المصدر السابق: ٣٥١.

(٤) من إضافات محقق «تذكرة السامع» في هامش صفحة ٩٨.

وهذا الإمام الشافعيّ، رحمه الله تعالى، يُقعِّد مذهب الأدب في المجالس فيقول:

«قدمت المدينة فرأيت من مالك بن أنس ما رأيته من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك أدباً، حتى ربما كنت أكون في مجلسه فأريد أن أصفح الورقة فأصفحها صفحاً رقيقاً هيبةً له لئلا يسمع وقعها!!»[١].

وهكذا كان أدبه مع مشايخه فكان أن عامله تلاميذه المعاملة نفسها، قال الربيع بن سليمان[٢]:

«والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعيّ ينظر إليّ هيبةً له!»[٣].

ولا عجب في هذا والله؛ إذ الأدب يُورَّث كما يورَّث المال.

أما الأدب الذي يستحب الالتزام به مع العالم فقد وضّحه ابن جماعة، رحمه الله تعالى، بنقله وصية أبي

(١) المصدر السابق: ١١٣، نقلاً عن «مناقب الشافعيّ» للبيهقيّ.
(٢) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المراديّ، أبو محمد المصريّ المؤذن، صاحب الإمام الشافعيّ، ثقة، مات سنة ٢٧٠ وله ست وتسعون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٢٠٦.
(٣) «تذكرة السامع»: ٦١.

الحسن عليٍّ بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه، حيث قال:

«من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامّة وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنّ عنده بيديك، ولا تغمز بعينيك غيره، ولا تقولن: قال فلان، خلاف قوله، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، وإن زلّ قبلت معذرته، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تُسارّ في مجلسه[١]، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

ولقد جمع، رضي الله عنه، في هذه الوصيّة ما فيه كفاية»[٢].

فبالله عليك، أيها القارىء العزيز، أخبرني بمجلس واحد من مجالس زماننا حضرتَه أو سمعت به يُلتزم فيه بمثل هذا الأدب النادر أو بما يقاربه، وما خلت مجالسنا من هذا الأدب إلا بتفريطنا وقلة اعتنائنا بما كان عليه سلفنا، رحمهم الله تعالى.

---

(١) أي لا تهمس مع أحد في مجلس الشيوخ.

(٢) «تذكرة السامع»: ١٠٠.

٣ ـ شاب[1] في مقتبل العمر يحضر محاضرة لشيخ معروف، فيُسأل ذلك الشيخ بعد نهاية المحاضرة سؤالاً في القضاء والقَدَر، فيجيب الشيخ بما قرّره أهل السنة والجماعة في هذا، فما كان من ذلك الشاب إلا أن قام في وسط الجمع ليعلن أنه لم يفهم جواب الشيخ، فأعاد الشيخ تقريره للمسألة، ففوجىء الحاضرون بالشابّ يقرر أنه لم يفهم المسألة لأن الشيخ لم يقرر مذهب أهل السنّة والجماعة فيها، ولم يشرحها بطريقة الشيخ الفلانيّ.

والشاب، على الحقيقة، لم يفهم المسألة، وإنما أساء الأدب في الخطاب، والمسألة أكبر منه.

٤ ـ اجتماع دوريّ يحضره شباب وعامة وأهل فضل وعلم، فيأتي أحد أهل الفضل والعلم فلا يجد مكاناً لائقاً، وقد احتلّ الصدارة حدثٌ ناشىء أو عاميّ جلف، فلا يتحرك أحد لاستقبال هذا القادم الفاضل، ولا يُفسح له مكانٌ يليق بعلمه وفضله، وقد جاء أحدهم مرّةً فوجد فسحة في صدر المجلس فأبى عليه أدبه الجلوس فيها بغير إذن ولا تقديم، ولم يقدمه أحد

---

(١) هذا المثال الثالث من أمثلة عدم احترام وتوقير أهل العلم والفضل.

للجلوس فيها مع أن صدر المجلس قد جلس فيه بعض الناشئة الأحداث!.

صحيحٌ أن على الإنسان أن يجلس حيث ينتهي به المجلس ولكن لا بأس بأن يقدمه غيره إلى مكان لائق به.

وقد جرت عادة السلف أن يقدموا في المجلس الأفضل فالأفضل، حتى لو حضر الفاضل متأخراً فإنه ينبغي أن يُقدّم إلى حيث يليق به الجلوس.

قال ابن جماعة، رحمه الله تعالى، مبيناً الأدب اللازم لمن حضر مجالس العلم:

«إذا حضر [أي طالب العلم] سلَّم على الحاضرين بصوت يُسمع جميعهم، ويخص الشيخ بزيادة تحية واحترام. . .

وإذا سلَّم فلا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قرب الشيخ مَن لم يكن منزلته كذلك، بل يجلس حيث انتهى به المجلس كما ورد في الحديث، فإن صرح له الشيخ والحاضرون بالتقدم، أو كانت منزلَته[1]، أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك فلا بأس، ولا يقيم أحداً من

(١) أي كانت الصدارة منزلته التي يجب أن يقدّم إليها.

مجلسه أو يزاحمه قصداً، فإن آثره لم يقبله إلا أن تكون في ذلك مصلحة يعرفها القوم وينتفعون بها من بحثه مع الشيخ لقربه منه، أو لكونه كبيرَ السن أو كثير الفضيلة والصلاح...

وإن كان الشيخ في صدر مكان فأفضل الجماعة أحق بما على يمينه ويساره»[١].

٥ ـ رجل التزم منذ فترة وجيزة، فيأتي به الثناء الكاذب والتعالم إلى موقع يحاسب فيه أئمة وخطباءَ ويقوّمهم، وبعضهم قد التزم الإسلام قبله بثلاثين سنة، فيكتب فيهم تقاريره بأنهم مبتدعة أو ضلاَّل أو جهلة، وهو، المسكين، لا يدري بأنه جاهل قد استُدْرِج إلى هذه الهُوَّة السحيقة، فنُكب به عدد من الأئمة أولي الفضل، ممن أجّلوا محاسبته حتى يَمْثُلوا معه أمام ملك الملوك سبحانه.

٦ ـ رجل من المتعالمين قد حقق بعض المخطوطات وصنف بعض التصانيف، اعتاد فيها أن يتناول علماء الأمة الذين مَضَوا باللمز والإساءة، فيصف هذا بأن عقيدته فاسدة جدّاً، وآخر بأنه جهميّ جلد، وآخر بأنه بدت منه الزندقة، أو تجده يدعو على العلماء، أو يمتنع من الترحم عليهم

---

(١) «تذكرة السامع»: ١٤٦ ـ ١٤٩.

بدعوى أنهم أهل بدع، أو يقلل من شأنهم، والخطير في هذا الأمر أن علماء الأمة وعُقلاءها لم يحركوا ساكناً للحد من سفاهة هذا الرجل وقلة أدبه والتقليل من خطره على النَّشْء؛ إذ هو، كما يُذكر، قدوةٌ لبعض جهلائهم وغرارهم.

ما أحوج هؤلاء الذين يسلقون العلماء بألسنة حداد إلى رجل مثل الإمام الحافظ ابن عساكر(١)، رحمه الله تعالى، فقد صدّ أحد هؤلاء صداً يليق به وبأمثاله من سفهاء المتعالمين، وهو يعد بالنسبة لأغرار زماننا إمام حافظ، بل هو كذلك لكن غلبه لسانه، وقعد به احتقاره العلماء، وإليك، أخي القارىء، هذه الكائنةَ التي حدثت في القرن السادس.

قال الإمام الذهبيّ، رحمه الله تعالى:

«قال الحافظ ابن عساكر:

---

(١) الإمام العلامة الحافظ، محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، وكان ديّناً، صنّف التصانيف المفيدة وأجلّها «تاريخ دمشق»، توفي سنة ٥٧١ بدمشق، رحمه الله تعالى، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/٣٠٩ ـ ٣١١.

كان العبدريّ[١] أحفظَ شيخ لقيته، وكان فقيهاً داودياً[٢]. . .

وسمعته وقد ذُكر مالكٌ فقال: جلف جاف!!، ضرب هشام بن عمّار[٣] بالدِّرَّة[٤].

وقرأت عليه «الأموال» لأبي عُبيد[٥] فقال، وقد مرّ قول لأبي عُبيد: ما كان إلا حماراً مغفلاً لا يعرف الفقه!.

وقيل لي عنه أنه قال في إبراهيم النَّخَعِيّ[٦]: أعورُ

---

(١) محمد بن سعدون بن مرجّى القرشيّ العبدريّ المغربيّ، نزيل بغداد، الإمام الحافظ الناقد، ولد بقرطبة وكان من بحور العلم، اتهم بالتجسيم، توفي في حدود سنة ١٣٠، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٤.

(٢) أي على مذهب الظاهرية، وإمامهم داود الظاهريّ، رحمه الله تعالى.

(٣) هشام بن عمار بن نُصير السُّلميّ الدمشقيّ الخطيب، توفي سنة ٢٤٥ وله اثنتان وتسعون سنة، انظر «التقريب»: ٥٧٣.

(٤) انظر القصة في «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٥.

(٥) الإمام القاسم بن سلام بن عبدالله الهرويّ، ولد سنة ١٥٧، وكان ثقة حافظاً مجتهداً، صنف التصانيف المفيدة، توفي بمكة بعد أن حجّ سنة ٢٢٤، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٤٩٠ ـ ٥٠٩.

(٦) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعيّ، أبو عمران الكوفيّ، الفقيه، ثقة، مات سنة ٩٦ عن خمسين سنة، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٥.

سوء، فاجتمعنا يوماً عند ابن السمرقنديّ[١] في قراءة كتاب «الكامل»[٢] فجاء فيه: «وقال السعديّ[٣] كذا»، فقال: يكذب ابن عَديّ[٤]، إنما ذا قولُ إبراهيم الجُوْزَجانيّ.

فقلت له: فهو السعديّ، فإلى كم نحتمل منك سوء الأدب؟!! تقول في إبراهيمَ كذا وكذا، وتقول في مالك: جاف، وتقول في أبي عُبيد، فغضب وأخذته الرِّعدة وقال: كان ابن الخاضبة[٥] ....

---

(١) أُبهم هنا لكن لعل أقرب التراجم إلى ابن السمرقنديّ هذا هو إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقنديّ الدمشقيّ المولد البغداديّ الوطن، توفي سنة ٥٣٦، وقد قرأ عليه ابن عساكر، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٨ ـ ٣٠.

(٢) «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عديّ، رحمه الله.

(٣) إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق الجُوْزَجانيّ نزيل دمشق، ثقة حافظ رُمي بالنصب، مات سنة ٢٥٩، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٩٥.

(٤) الإمام الحافظ والكبير الثقة أبو نُعيم عبد الملك بن محمد بن عديّ الجرجانيّ الاستراباذيّ الفقيه الشافعيّ، ولد سنة ٢٤٢ وكان مقدماً في الفقه والحديث وكانت الرحلة إليه، وهو من أئمة المسلمين صدقاً وورعاً وضبطاً وتيقظاً، توفي باستراباذ سنة ٣٢٣ عن نيف وثمانين سنة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/٥٤١ ـ ٥٤٧.

(٥) الشيخ الإمام المحدث الحافظ الصادق القدوة، أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي البغداديّ الدقاق المعروف بابن=

والبَرَدانيّ[(١)] وغيرهما يخافونني فآل الأمر إلى أن تقول فيّ هذا!

فقال له ابن السمرقنديّ: هذا بذاك.

فقلت: إنَّما نحترمك ما احترمت الأئمة!!»[(٢)].

لله ما أعظم تلك الكلمةَ التي خرجت من فم حافظ الشام: «إنما نحترمك ما احترمت الأئمة» وكم نحن بحاجة إلى أمثاله في زماننا هذا الذي سهل فيه على الأغرار الكلامُ على الأخيار، وأذيتهم بالقول والفعل، والله الموعد.

رابعاً: الأدب الشخصيّ والسلوكيّ:

هذا الأدب هو عنوان شخصية المسلم، وإظهار لمدى استفادته من نصوص الأدب في الكتاب والسُّنة وكتب العلماء وسيرهم.

= الخاضبة. كان فاضلاً محبباً إلى الناس، توفي سنة ٤٨٩، وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/١٠٩ ـ ١١٤.

(١) الشيخ الإمام الحافظ الثقة مفيد بغداد، أبو علي أحمد بن محمد بن أحمد البردانيّ ثم البغداديّ، وبَرَدان قرية من قرى بغداد، ولد سنة ٤٢٦، وسمع من جماعة ولم يرحل، كان ثقة نبيلاً، وله مصنفات. توفي سنة ٤٩٨، رحمه الله تعالى، انظر المصدر السابق: ١٩/٢١٩ ـ ٢٢١.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٣٩٣.

صحيحٌ أن لبيئة الشخص تأثيراً كبيراً في سلوكه لهذه الآداب، فالبدويّ يختلف تأدبه عن الحضريّ، وبيوت الحضر ليست في مرتبة واحدة في مراعاة سلوك الأدب، ولكنه لا بد للمسلم أن يلتزم بمبادىء سلوكيّة أدبية لا مناص له منها في تعامله مع إخوانه ومجتمعه.

وهذا الأدب، خصوصاً، قد كُتب فيه كثيراً، وجاءت فيه آيات وأحاديث كثيرة بما لا يحتمل إيراده هاهنا، ولكنه إذا استُهين بهذا السلوك الأدبيّ ولم يُراعَ في المجتمع فإنه ينتج الصور التالية:

١ ـ قوم من أهل العلم والفضل جلوس في مجلس يغص بالفضلاء، فما كان من أحدهم إلا أن أقام رِجلاً على أخرى بطريقة غريبة بعيدة عن الذوق والأدب، بحيث أصبح أسفل قدمه في وجوه كثير من الفضلاء، وهو لا يشعر بأنه قد صنع شيئاً جارحاً!.

٢ ـ في المسجد النبويّ، وفي جو إيمانيّ خاشع يَعْمِدُ أحد المحتاجين إلى هذا الأدب فيضع المصحف على الأرض أمامه، فينصحه أحدُ المصلين برفعه حتى لا يُداس أو يُمتهن، فما كان منه إلا أن طالب بالدليل على هذا!!.

وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ
إذا احتاج النهار إلى دليل

فهل يُطلب دليلٌ على تكريم المصحف ورفعه والتأدب معه؟!.

وفي الاعتكاف في بيت الله الحرام تجد بعض المصلين قد استلقوا على الأرض على أقفائهم، وأرجل بعضهم تكاد تلامس مكان حفظ المصاحف بدعوى ألا دليل على التحريم، أو هو التهاون وعدم التأدب، وقد رأيت بعيني أكثر من مرة، في ذلك المكان الشريف، مصاحف موضوعة تحت النعال، نعم إن صاحبها لم يقصد ذلك ولكن أدّاه إليه تهاونه وسوء أدبه مع المصحف الشريف.

٣ ـ رجل يقول لإخوانه: تَعَالَوْا نغتب في الله ساعةً، وظنُّه أنه يقتدي بالإمام شعبة بن الحجاج[١]، حيث كان يؤسس قواعد الجرح والتعديل لرجال الحديث الشريف[٢]، فشعبة، رحمه الله، لم يقل مثل هذا لأجل الغيبة المذمومة المحرّمة، إنما يقصد بكلمته تلك الجرحَ والتعديل لرواة

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الوَرْد العَتكيّ بالولاء، أبو بسطام الواسطيّ البصريّ. ثقة حافظ متقن، أمير المؤمنين في الحديث، هو أول من فتش عن الرجال في العراق وذبّ عن السنة، وكان عابداً، توفي سنة ١٦٠، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٦٦.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٨٢.

الحديث الشريف بمقاييسَ أقرّها الشرع المطهّر وفُرِغ منها، أفيأتي اليومَ جاهل ليطبق مقولة شعبة على إخوانه الدعاة الذين نذروا أنفسهم لدين الله تعالى وإقامته في الأرض، فينهش أعراضهم، ويُسفِّه أحلامهم، وينتقص أحوالهم، وينبز قدواتهم بدعوى أنه يغتاب في الله؟!

فليتق اللّهَ امرؤٌ يتجرأ على مثل هذا.

٤ ـ وهناك صور تنبىء عن الإخلال بهذا الأدب عند بعض الناس، وذلك نحو عدم الترفع عن البذاءة في اللسان، والفحش في القول، أو عدم الاكتراث بمعرفة وتطبيق أدب الإسلام في نفسه وأهله وبيته، أو إزالة الكلفة بينه وبين أقرانه إلى حد إساءة الأدب، أو أنه يترك نفسه على سجيّتها عند الخطاب مع إخوانه وخاصّة أولي الفضل منهم، أو تجده يلبس من الثياب في المجامع ما يُستحيى من لُبسه، أو تجده كثير المزاح إلى درجة يستثقل معها ويُكره لقاؤه، أو أن يكون صوته صياحاً وعويلاً، . . . إلخ.

هذه بعض الحوادث والصور التي تدل على الإخلال بهذا الأدب الذي قد يُقلِّل من شأنه، أو يُظنُّ أنه ليس مهماً، أو لا يُحافظ عليه المحافظة الواجبة فيسوء حال المجتمع وتسقط هيبة أفراده.

❁ ❁ ❁

طريق اكتساب الأدب

إذا تقررت حاجتنا إلى الأدب، وعلمنا أهميته وفضله، وعرفنا أن الصالحين والأخيار حرصوا على الاتصاف به والأخذ بطرائقه، إذا عُلم ذلك كله فكيف السبيل إلى اكتسابه والتخلق به؟

لا بد أن يُعلم ابتداءً أن الأدب وهبيٌّ وكسبيّ، فقد يميز الله بعض الناس بمعرفة طرائق الأدب وسلوك دقائقه وهم بعد في الصِّغر، فهذه موهبة من الله وهبها لعبده ذاك، وبعض الناس قد يضطر إلى أن يكتسب طرائق الأدب اكتساباً لقلة ما وهبه الله إيّاه من هذا الخلق الكريم.

وهاك بعض الطرائق التي تعين على اكتسابه:

أولاً: تربية النَّشْء عليه وأخذهم بتعاليمه:

لا بد أن يُربَّى النَّشْء على الأدب، ويُعلَّموا قواعده ومسالكه حتى يعتادوه فيصبح سمة بارزة لهم غير متكلفة.

وقد حرص الصالحون، والمربون، والعلماء، والسلاطين، والخلفاء، والأمراء، على تنشئة أولادهم على الأدب وحملهم عليه حتى يكون زينة لهم وفخراً، وعهد كثير منهم بالمهمة هذه إلى المؤدّب والمربي، الذي كان له النصيب الأوفر من التوقير والتبجيل.

قال الذهبيّ، رحمه الله تعالى:

«كان المأمون[١] قد وكل بـ«الفرّاء»[٢] ولديه يُلقنهما النحو، فأراد القيام فابتدرا إلى نعله فقدّم كل واحد فَردةً، فبلغ ذلك المأمون، فقال: لن يكبر الرجل عن تواضعه لسلطانه وأبيه ومعلمه»[٣].

«وقيل لبُزُرجُمْهُر[٤]:

---

(١) عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد، أبو العباس المأمون الخليفة العباسيّ المشهور، توفي سنة ٢١٨، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) عالم زمانه في اللغة والأدب: أبو زكريا يحيى بن زيد بن عبدالله الأسديّ، توفي سنة ٢٠٧، وله ثلاث وستون سنة، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) من حكماء الفرس وفلاسفتهم الذين سطروا كتباً في الحكمة، واستولى عليها الإسكندر بعد انتصاره على دارا ملك الفرس، انظر «نزهة الأرواح وروضة الأفراح»: ٥٣ ـ ٥٤.

ما بال تعظيمك لمؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟!

قال: لأن أبي كان سببَ حياتي الفانية، ومؤدبي سببَ حياتي الباقية»[١]!

وهو كلام حسن جداً.

وقال عبد الملك بن مروان[٢]، رحمه الله تعالى، لمؤدب ولده:

«علّمهم الصدق كما تعلّمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة.

ورَوِّهم الشعر يَشْجُعُوا وَيَنْجُدُوا.

وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسنُ الناس رِعَةً[٣] وأحسنهم أدباً.

وجنّبهم السَّفَلة والخدم، فإنهم أسوأ النّاس رِعَةً

---

(١) «البصائر والذخائر»: ٥/١٤٩.

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ، أبو الوليد المدنيّ ثم الدمشقيّ، كان طالب علم قبل الخلافة ثم اشتغل بها فتغير حاله، ملك ١٣ سنة استقلالاً وقبلها منازعاً لابن الزبير ٩ سنين، مات سنة ست وثمانين وقد جاز الستين، رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٣٦٥.

(٣) ورعاً.

وأسوأهم أدباً، ومُرْهُم فليستاكوا عَرْضاً، ولْيمصّوا الماء مصّاً ولا يَعُبُّوه عَبّاً.

ووقرهم في العلانية، وذلِّلهم في السر، واضربهم على الكذب؛ إذِ الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار.

وجنبهم شتم أعراض الرجال؛ فإن الحرّ لا يجد من عِرضه عِوضاً.

وإذا وُلُوا أمراً فامنعهم من ضرب الأبشار[١]؛ فإنّه عارٌ باقٍ ووِترٌ[٢] مطلوب.

واحملهم على صلة الأرحام، واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النَّسب»[٣].

وإنّما سُقت هذه الوصية بطولها لما فيها من معالم عامة لتأديب الأطفال والفتيان في حال اجتماعهم مع الناس، وفي أوقات خلوتهم، وفي حال توليهم المسؤولياتِ الجِسام، وغير ذلك.

---

(١) الأبشار جمع بشرة؛ وهي ظاهر الجلد، «المصباح المنير»: (ب ش ر).

(٢) ثأر.

(٣) «لباب الآداب»: ٢٠٣.

وقد كانت سُنَّةً حميدة أن يُعهد بالأولاد للمربين والمؤدبين الصالحين، وما أجدر دعاةَ الإسلام اليوم أن يُحيوا تلك السُّنَّةَ الحميدة، فإن أوقاتهم التي يبذلونها سخية لله تبارك وتعالى لم تُبق لهم طاقة على صيانة الأبناء وتأديبهم، وليس لكل منهم زوجة أديبة أريبة متفرِّغة لهذا الأمر الجَلل، فليس أمام الصالحين والدعاة اليوم، والله أعلم، إلا أن يُحيوا سنة المؤدبين حتى لا يَشْقَوْا بأولادهم كباراً.

وقد يُقال: كيف يتم هذا، وأين هم هؤلاء المؤدِّبون؟

أقول: ابحث لولدك عن معلم للقرآن، مثلاً، واجعل من شروطك في هذا المعلم أن يكون به من الأدب والحزم والعلم ما يمكن أن يؤهله لتأديب أبنائك ولو تأديباً متوسطاً فإنه خير من تركهم هملاً، فإنا قد رأينا أولاداً لبعض الصالحين يُخجل منهم، عافانا الله وإياكم.

قد ينفع الأدبُ الأحداثَ في صغر
وليس ينفع عند الشيبة الأدب[1]

«قال بعض الحكماء:

بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال»[2].

---

(١) «منهاج اليقين»: ٣٩٣.

(٢) «منهاج اليقين»: ٣٩٣.

«ويقال: من أُدِّب صغيراً قرّت عينه كبيراً، ومن أدّب ابنه أرغم أنف عدوه»[١].

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت
ولا يلين إذا قوّمته الخشبُ[٢]

«وقال بُزُرجُمْهُر: ما ورّثت الآباء الأبناء شيئاً أفضلَ من الأدب!، إنّها إذا ورّثتها الآداب كسبت بالآداب الأموال والجاه والإخوان والدين والدنيا والآخرة، وإذا ورّثتها الأموال تَلفت الأموال، وقعدت عُدْماً من الأموال والآداب»[٣].

وقد كان الآباء يوصون أبناءهم بتعلم الأدب قبل العلم، فمن ذلك:

«قال حبيب بن الشهيد[٤] لابنه:

يا بنيّ، اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلّم منهم، وخذ من أدبهم، فإن ذلك أحبّ إليّ من كثير من الحديث»[٥].

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٢٨.
(٢) «منهاج اليقين»: ٣٩٣.
(٣) المصدر السابق: ٢٢٩.
(٤) أبو مرزوق التُّجيبيّ بالولاء المصريّ، نزيل بَرْقة واسمه حبيب ابن الشهيد، ثقة، مات سنة ١٠٩ رحمه الله تعالى، انظر «التقريب»: ٦٧٢.
(٥) «تذكرة السامع»: ٢ ـ ٣.

«وقال بعضهم لابنه:

يا بنيّ، لأن تتعلم باباً من الأدب أحبُّ إلي من أن تتعلم سبعين باباً من أبواب العلم»[١].

وقال الإمام مالك، رحمه الله تعالى:

«كانت أمي تُعَمِّمُني وتقول لي: اذهب إلى ربيعةَ[٢] فتعلم من أدبه قبل علمه»[٣].

وليس معنى هذا أن يُهمل العلم، كلا فالأئمة أورع وأتقى من أن يصنعوا هذا، بل غاية ما في تلك الآثار الحثّ على الأدب وأنه يُتعلم قبل تعلم مسائل العلم، وذلك أنه «علمٌ بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كروح بلا جسم»[٤].

وأختم بكلام نفيس للإمام الغزاليّ، رحمه الله تعالى، حيث قال في باب: «بيان الطريق في رياضة الصبيان في

---

(١) «تذكرة السامع»: ٢ ـ ٣.
(٢) ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن التيميّ بالولاء، أبو عثمان المدنيّ، المعروف بـ(ربيعة الرأي)، واسم أبيه فروخ. ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦، رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٠٧.
(٣) «صفحات من أدب الرأي»: ٦٣، نقله المصنف عن «ترتيب المدارك» للإمام عياض، رحمه الله.
(٤) المصدر السابق: ٦٣ نقلاً عن «الجامع» للخطيب، رحمه الله.

أول نشوئهم، ووجه تأديبهم، وتحسين أخلاقهم» من كتاب «إحياء علوم الدين»:

«اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها.

والصبيّ أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه.

فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب.

وإن عُوِّد الشرَّ وأُهمل إهمالَ البهائم شقي وهلك، وكان الوِزْر في رقبة القَيِّم عليه، وقد قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1].

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوِّده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر...

بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل في

---

(١) التحريم: ٦.

حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يُحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يَحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، فالصبيّ المستحي لا ينبغي أن يُهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه».

ثم ذكر طرقاً نفيسة في تأديب الصبيان ينبغي لكل والد ووالدة ومربٍّ ومربية الرجوع إليها.

ثانياً: إبراز القدوات:

وطريق ذلك النظر في ميراث أسلافنا العظام لنعلم كيف كان الأدب سلعة رائجة بينهم قام سوقها واشتد عودها، فيُبرز للناس القدوات في هذا الباب ليعلموا أنهم، بسلوكهم الأدب، على سنة وطريقة متبوعة، وعلى خير عظيم وميراث جليل.

ثالثاً: تعليم الناس وتذكيرهم دوماً بأهمية الأدب في حياتهم ومجتمعاتهم وخطورة تركه وإهماله:

وذلك يتحقق بإقامة الندوات والمحاضرات في الإذاعة والتلفاز، وكتابة المقالات والمطولات على

صفحات الجرائد والمجلات، وحَثُّ الخطباء على معالجة هذا الموضوع في خطب الجمعة وغيرها، وإعلاءِ شأنِ الأديب والتنويه به وجعله قدوةً وإماماً في هذا الباب، إلى آخر ما تتفتّق عنه قرائح المربين والموجهين.

رابعاً: ترسيخ الأخلاق القويمة في المجتمع:

لا بد أن يُعلم أن الأدب له روافد كثيرة من الأخلاق الأساسية المرغوبة المطلوبة، فالإنصاف خلق كريم والمؤدب لا بد أن يكون منصفاً، والأمانة مطلوبة والمؤدب لا بد أن يكون أميناً، والصدق خلق عظيم والمؤدب لا بد أن يكون صدوقاً، وهكذا. . . فتربية المجتمع على الأخلاق القويمة تُنشىء أصحاب أدبٍ رفيع بلا شك، والله أعلم.

خامساً: قراءة الكتب التي أُفردت لأبواب الأدب:

وسيأتي ذكرها في المبحث القادم، إن شاء الله تعالى:

هذه الكتب تحوي أزهاراً منثورة تُكسب طالبها الأدب والرقّة وحسن الخلق، وتُعمل في نفسه ما لا يعمله كثير من الكلام المجرد الجافّ، والله أعلم، وكذلك تُفيد، في هذا الباب، قراءة كتب الأدب العربيّ: نثرِه وشعره، فهو يُرقِّق الحسَّ، ويُرهف المشاعر، ويزكي النفس، لما فيه من حث

على مكارم الأخلاق والفتوّة، وذكر شمائل العرب المشهورة.

سادساً: مصاحبة المربِّين المؤدِّبين:

من أعظم ما يفيد في هذا الباب هو تلقِّي الأدب من المربين، فإن كان المتلقي طالب علم أخذ علمه عن شيوخ يربونه على الأدب ويقسرونه عليه.

وإن كان المتلقي للأدب لا رغبة له في طلب العلم فليصحب من الرفقاء من يزين له مذهب الأدب ويحثّه عليه.

قال الإمام الغزاليّ، رحمه الله تعالى:

«الطريق الثاني[١]: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين، كان عمر يقول: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي»[٢].

سابعاً: توقي الآداب المرذولة:

وهذه طريقة مفيدة لاكتساب الأدب لمن لا شيخ له ولا صاحب، وهي طريقة للعقلاء، ولا تصلح للجهال،

---

(١) أي من طرق تهذيب النفس.

(٢) «موعظة المؤمنين»: ٢١١.

ولا للسفهاء، ويوضح هذا الإمام الغزاليّ بقوله:

«الطريق الرابع[١]: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخَلْقِ فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به غيره فلا ينفكّ هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقّد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كل ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب...

وهذا كله من حِيَل من فقد شيخاً مربياً ناصحاً في الدين، وإلا من وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه فإنه يخلصه من مرضه»[٢].

ويقول ابن المقفع، رحمه الله تعالى:

«على العاقل أن يُحصيَ على نفسه مساويَها في الدين، وفي الرأي، وفي الأخلاق، وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها إصلاحه، ويوظف ذلك عليها توظيفاً[٣] من

---

(١) أي من طرق التأدب.

(٢) «موعظة المؤمنين»: ٢١٢.

(٣) أي يجعل لإصلاحه جدولاً مرتباً.

إصلاح الخلّة أو الخلّتين[١] في اليوم أو الجمعة أو الشهر، فكلما أصلحَ شيئاً مَحاه، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب[٢].

وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحفظها ويحصيَها، ويصنع في توظيفها على نفسه وتعهدها بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوي»[٣].

وقال ابن المقفع أيضاً:

«حق على العاقل أن يتخذ مرآتين:

فينظر من إحداهما في مساوىء نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها.

وينظر من الأخرى[٤] في محاسن الناس فيحليهم بها[٥] ويأخذ ما استطاع منها»[٦].

---

(١) الخصلة والصفة.
(٢) أي نظر إلى سيئة باقية لم ينجح في محوها.
(٣) «الأدب الصغير»: ٢٨٧.
(٤) أي المرآة الأخرى.
(٥) أي أن الصفات الجميلة حُلوة في الناس فيعتقد حلاوتها عليهم ليستفيد منها وبها.
(٦) الأدب الصغير: ٢٩٨.

ثامناً: رياضة النفس ومجاهدتها:

من علم من نفسه قصوراً في هذا الباب فعليه أن يروضها ويهذبها ويجاهدها حتى تُلجَم بالأدب وتساس به، فإنه ليس كل أحد يعرف، فطرةً وخَلْقاً، مسالك الأدب وطرقه، فلا بد له من رياضة ومجاهدة وتخلّق حتى يصير له الأدب خلقاً ملازماً.

ولا يُتصوّر أن يكتفي الشخص في اكتسابه الأدبَ بمسائل علميةٍ مجردة دون أن يتدرّب على الأخذ بها ورياضة نفسه عليها، ومجاهدتها بها.

قال الإمام الغزاليّ، رحمه الله تعالى:

«اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بذلك لقصوره ونقصه وخُبث دَخَلته[١]، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغيّر.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التّغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات. . . وكيف يُنكَر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ يُنقل البازي[٢] من

---

(١) أي خُبث نفسه.

(٢) الصقر.

الاستيحاش إلى الأُنس، والفرس من الجِماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق».

ثم قال، رحمه الله:

«فمن أراد، مثلاً، أن يُحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه به، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً ويتيسّر عليه فيصير به جواداً... وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق»(١).



(١) «موعظة المؤمنين»: ٢٠٥ ـ ٢٠٨.

مسائل متفرقة في باب الأدب

المسألة الأولى:

هل الأدب ينافي الرجولة والقوة والشجاعة وحسن الإفصاح؟

يظن بعض الناس أن سلوك الأدب حاجز لهم عن الرجولة، والقوة، والشجاعة، وأن المؤدب رجل رقيق ضعيف، منحني الرأس، خفيض الصوت إلى حد الهمس، خجول لا يستطيع الإفصاح عن مكنونات نفسه ومطالبها.

وهذا ظنٌّ ينبغي أن يُمحى من الأذهان بمجرد تذكر أن الرسول ﷺ وصحابته كانوا أعظم الناس أدباً، ومع هذا فقد كانوا أشجع الناس وأقواهم في الحق، وكانوا القدوة حقاً في هذا.

وفي التاريخ الإسلاميّ مثال جميل على القوة والشجاعة، مع التمسك بالأدب، ومراعاة حقّ من له حقٌّ.

فقد أتت امرأةٌ يوماً شريك بن عبدالله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم؛ فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي.

قال: من ظلمك؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عمّ أمير المؤمنين، كان لي بستان على شاطىء الفرات فيه نخل وَرِثتُه عن أبي، وقاسمت إخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلتُ فيه رجلاً فارسياً يحفظ النخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني ورغّبني فلم أبعه، فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل[١] فاقتلعوا الحائط، وأصبحتُ لا أعرف من نخلي شيئاً، واختلط بنخل إخوتي.

فقال: يا غلام أحضر طينة[٢]، فأحضرها، فختمها، وقال لها: امضي إلى بابه بالختم حتى يحضر معك، فجاءت المرأة بالطينة فأخذَها الحاجبُ ودخل على موسى فقال: قد أعدى القاضي عليك[٣]، وهذا ختمه.

فقال: ادعُ لي صاحب الشرطة، فدعا به.

---

(١) أي عامل.

(٢) وهي الدالة على ختم الكتاب وأنه لم يفتح.

(٣) أي جعل للمرأة حقاً في المطالبة والادّعاء، فوجب لذلك حضور الأمير إلى مجلس القضاء للفصل.

فقال: امضِ إلى شريك، وقل: يا سبحان الله، ما رأيت أعجبَ من أمرك، امرأة ادَّعت دعوى لم تصحّ، أعديتَها عليَّ؟!

قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيَني من ذلك؟

فقال: امضِ ويلك.

فخرج وقال لغلمانه: اذهبوا وأَدخلوا لي إلى حبس القاضي بساطاً وفراشاً وما تدعو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك، فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة.

فقال القاضي لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس.

فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنّك تحبسني فقدَّمت ما أحتاج إليه إلى الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجَّه الحاجب إليه، وقال له: رسول أدّى رسالة، أيُّ شيء عليه؟!

فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه: إلى الحبس، فحبس.

فلما صلّى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثيّ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة

من أصدقاء القاضي شَريك، وقال لهم: امضوا إلى القاضي وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخف بي، وأني لست كالعامَّة.

فمضوا إليه وهو جالسٌ في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة: فلمَّا انقضى كلامهم، قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غَثَرة[١] من الناس فكلمتموني؟ مَن ههنا من فتيان الحيّ؟ فأجابه جماعة من الفتيان.

فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فتنة، وجزاؤكم الحبس.

قالوا له: أجادٌّ أنت؟!

قال: حقاً، حتى لا تعودوا برسالة ظالم، فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه السجَّان فأخبره، فدعا بالقمَطر[٢] فختمه ووجَّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد

---

(١) الغَثَرة: الجماعة المختلطة من الغوغاء، «لسان العرب»: (غ ث ر).

(٢) أي الوعاء الذي تحفظ فيه الكتب.

ضَمنوا لنا فيه الإعزازَ إذ تقلَّدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقه، وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبدالله، تثبَّت، انظر، إخوانك تحبسهم، دع أعواني، قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمر لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولستُ ببارح أو يُردُّوا جميعاً إلى الحبس وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهديّ فأستعفيه مما قلدني، فأمر موسى بردِّهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه، حتى جاءه السجَّان فقال: قد رجعوا جميعاً إلى الحبس.

فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يديَّ إلى مجلس الحكم، فمرُّوا بين يديه حتى أُدخِل المسجد، وجلس في مجلس القضاء.

فجاءت المرأة المتظلمة فقال: هذا خصمك وقد حضر.

فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كلّ أمر أنا قد حضرت، أولئك يُخرجون من الحبس.

فقال شريك: أمّا الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس.

فقال: ما تقول فيما تدَّعيه هذه المرأة؟

قال: صدقت.

قال: تردُّ ما أخذتَ منها وتبني حائطها سريعاً كما كان.

قال: أفعل ذلك كله.

قال لها: أبقيَ لك عليه دعوى؟

قالت: بيت الرجل الفارسيّ ومتاعُه؟

قال موسى بن عيسى: ويُردُّ ذلك كله.

قال: أبقيَ لك عليه دعوى؟

قالت: لا، وبارك الله عليك وجزاك خيراً.

قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه، وقال: السلام عليك أيُّها الأمير، أتأمر بشيء؟!

فقال: أيُّ شيء آخر؟! وضَحِكَ.

فقال له شَريك: أيها الأمير ذاك الفعل حقُّ الشرع، وهذا القول الآن حقُّ الأدب، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظَّم أمر الله أذلَّ الله له عظماءَ خلقه[1].

(١) «علماء الإسلام»: ١١٢ ـ ١١٤ نقلاً عن «العقد الفريد».

وهذه القصة تدلّ على القوّة والشجاعة مع التمسك بالأدب وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، والله أعلم.

المسألة الثانية:

المؤدب قد يبدو منه بعض ما يُظن أنه مخالف للأدب وذلك لغرض شرعيّ.

قد تقرر أن المؤدّب عفُّ اللسان، فكيف صدر من أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ما صدر يوم الحديبية؟!، وكيف فاه أبيٌّ بن كَعب، رضي الله عنه، بما فاه به عندما سمع تفاخر رجل بقومه ونسبه؟!

بيان هذا أن تُوضَّحَ الحادثتان، وينظر في كلام أهل الإسلام فيهما:

أما الحادثة الأولى فقد أخرج الإمام البخاريّ، رحمه الله تعالى، في حديث الحديبية الطويل أن عروة بن مسعود الثقفي[1] انتدبته قريش للحديث مع رسول الله ﷺ، فكان مما قاله له:

---

(١) أحد الصحابة، رضي الله عنهم، وقد ورد ذكره مضمناً في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وقصته هذه قبل إسلامه.

«أي محمد، أرأيتَ إن استأصلت أمرَ قومك[١]، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى[٢] فإني والله لا أرى وجوهاً[٣]، وإني لأرى أشواباً من الناس[٤] خليقاً أن يفروا ويدعوك».

فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، لما قال عروة ذلك، ورد عليه:

«امصص بَظْر اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟!!»[٥].

فهذه لفظة شديدة من أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، ولكنها في هذا المقام جائزةٌ حسنةٌ لصدِّ عُروةَ ونهيه عن أن يَظنّ بالمسلمين الفرار عن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر[٦]، رحمه الله تعالى، موضحاً الحكمة في هذا:

---

(١) أي بهزيمتهم وقتلهم.

(٢) أي حصول الهزيمة على النبي ﷺ.

(٣) أي عظماء من الناس.

(٤) أي أخلاطاً من أنواع شتّى، والتفسيرات الثلاثة الأخيرة من «الفتح»: ١١/ ١٦٨.

(٥) أخرجه البخاريّ، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

(٦) الإمام الأستاذ أحمد بن عليّ بن محمد، أبو الفضل الكنانيّ العسقلانيّ المصريّ ثم الشافعيّ، ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد بمصر العتيقة سنة ٧٧٣، وحفظ بعض المنظومات وأخذ عن مشايخ كثيرين، وجدّ في طلب العلم=

«البَظْر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك ولكن بلفظ الأم[١]، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عُروةَ بإقامة من كان يَعبد مُقامَ أمه، وحَمَله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.

وفيه[٢] جواز النُّطق بما يُستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك.

وقال ابن المُنَيِّر[٣]: في قول أبي بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بأنها لو كانت بنتاً لكان لها ما يكون للإناث»[٤].

= حتى بلغ الغاية، وله عدة مصنفات نافعة مشهورة، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ ـ ٤٠.

(١) أي يقول أحدهم إذا شتم: امصص بَظْر أمك.

(٢) أي في الحديث من الفوائد، وهو مرادي من ذكر هذا الحديث.

(٣) أحمد بن محمد بن منصور، من علماء الإسكندرية وأدبائها، ولي قضاءها وخطابتها مرتين، وله تصانيف. ولد سنة ٦٢٠، وتوفي سنة ٦٨٣ رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ١/ ٢٢٠.

(٤) «فتح الباري»: ١١/ ١٦٨ ـ ١٦٩.

وقال ابن القيم، رحمه الله:

«وفي قول الصديق لعروة: «امصص بظر اللات» دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال... فلكل مقامٍ مقالٌ»[١].

وأما ما كان من أُبيّ، رضي الله عنه، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبيّ بن كعب، رضي الله عنه، أن رجلاً اعتزى بعزاء الجاهلية[٢]، فأَعَضَّه ولم يَكْنِه[٣]، فنظر القوم إليه[٤]، فقال للقوم: إني قد أرى الذي في أنفسكم، إني لم أستطع إلا أن أقول هذا، إن رسول الله ﷺ أمرنا **«إذا سمعتم من يتعزّى بعزاء الجاهلية فأعضُّوه ولا تُكنوا»**.

وقال الأستاذ البنا، رحمه الله تعالى، تعليقاً على هذا الحديث:

---

(١) «زاد المعاد»: ٣/ ٣٠٥.

(٢) قال الأستاذ أحمد البنا في «الفتح الربانيّ»: ١٩/ ٢٢٩: «أي انتسب وانتمى، وعزاء الجاهلية هو أنهم كانوا يقولون في الاستغاثة: يا لِفُلان، وينادي: أنا فلان بن فلان ينتمي إلى أبيه وجده لشرفه وعزه» اهـ. بتصرف يسير.

(٣) «أي قال له: اعضض ذكر أبيك بصريح اللفظ لا بالكنية عنه وهي الهَنُ، وكُني بهذا الاسم عن الفرج» اهـ. المصدر السابق بتصرف يسير.

(٤) أي نظروا إليه نظر دهشة واستنكار، المصدر السابق.

«هو أمر تأديب، وفيه زجر عن دعوى الجاهلية»[١].

فالحادثتان إذاً لا تخالفان المعهود من أدب الصحابة، رضي الله عنهم؛ إذ أن كلاً من الصديق وأبيّ بن كعب لم يَفُوها بما فاها به إلا دفاعاً عن الإسلام وأهله، ودفعاً لقالة السوء عنهم، ومثل هذا الموقف يسوغ فيها، كما ذكر عدد من الأئمة، الإفحاش في الرد على أصحابها حتى لا يجوزوا حدودهم، ولا يُحدثوا البلبلة في الصف الإسلاميّ، والله أعلم.

وفي حديث آخر أن أصحابه قالوا له: «ما كنت فحاشاً، قال: إنما أمرنا بذلك»[٢].

المسألة الثالثة:

عدم الاتفاق في بعض المسائل لا يعني إهدار سائر حقوق الأدب:

يجتمع الإنسان المسلم في هذه الحياة بطبقات شتّى من الناس، وكل إنسان له حقّ معلوم لا بد من إيفائه إياه حتى لو كان هذا الحق هو السلام عليه، فلو اختلف

---

(١) المصدر السابق.

وقال الأستاذ البنا: رمز له السيوطي بعلامة الصحة.

(٢) المرجع السابق.

المسلم مع آخر في أمر ما فلا يعني هذا إهدارَ كل حقوقه في باب الأدب أو التقصير فيها.

ومثال هذا أن يجتمع عدد من الناس في مجلس فيختلفون وقد ترتفع أصواتهم، ولكن ليس لأحد منهم أن يتجاوز حدود الأدب أو يقصر في بعض حقوق أخيه؛ لأنه اختلف معه في الرأي، أو غضب من طريقة نقاشه، أو ساءه بعض تصرفاته.

وقد ذكر الذهبيّ، رحمه الله تعالى، مثالاً يصلح في هذا الباب، باب حفظ حقوق الأدب ولو حصل خلاف ما بين الأفراد، فقال، رحمه الله:

«قال أحمد بن أبي الحَواريّ[1]:

جاء رجل من بني هاشم إلى عبدالله بن المبارك ليسمع منه فأبى أن يحدثه.

فقال الشريف لغلامه:

قم فإن أبا عبدالرحمٰن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام

(١) أحمد بن عبدالله بن ميمون ابن أبي الحَواريّ الإمام الحافظ القدوة شيخ أهل الشام، أبو الحسن الثعلبيّ، الغطفانيّ الدمشقيّ الزاهد أحد الأعلام، أصله من الكوفة، ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤٦، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ٩٨٥ ـ ٩٨٨.

ليركب جاء ابن المبارك يمسك بركابه.

فقال: يا أبا عبدالرحمٰن، تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني.

فقال: أذلّ لك بدني، ولا أذلّ لك الحديث»[١].

فهو لا يرى أن يحدثه ولكن أوفاه حقَّه من الأدب الواجب مع آل البيت الأطهار.

وفي القصة المذكورة في المسألة الأولى من هذه المسائل المتفرّقة ما يصلح أن يكون شاهداً لهذه المسألة أيضاً، والله أعلم.

المسألة الرابعة:

قاعدة جامعة في المؤدَّب، من هو؟

قد يقول قائل: قد أكثرت علينا في باب الأدب فهل من قاعدة جامعة يُعرف بها المؤدب؟

وأقول مستعيناً بالله:

المؤدَّب هو الذي ألزم نفسه خصال الأدب التي سنّها الشرع المنيف، وهذه الخصال هي التي ربّى عليها خير الخلق ﷺ أصحابه الأشراف وآله الأطهار، فَعَلت بهم عُلوّاً

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

كبيراً، وأورثتهم الكافرين: أرضَهم وديارَهم وأموالَهم.

ويكفي في هذا أن يُورد حديثُ ذلك المغتاظ: «أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخِراءة، فقال: أجل...»[1].

أي أنه علمهم آداب كل شيء حتى آداب دخول الحمّام، وهذا مما لم تسبق إليه شريعة.

المؤدَّب، أيضاً، هو الذي لا يخرج عن أعراف مجتمعه الصالحة التي لا تخالف الشرع، فبالتزامه لها يعظم في عين الناس.

ومع أن خصال الأدب واسعة كثيرة يصعب حصرها لكن لا بد من النظر فيها نظراً يعين على تطبيقها كلها أو بعضها، وللتوصل إلى ذلك لا بد من النظر في جوامع الآداب التي أشارت إليها الشريعة، وسنّها الصالحون، فيؤخذ من تلك الآداب على قدر همة الشخص واستعداده وتقبله.

وقد شعر بعض المهتمين قديماً بكثرة مسائل الأدب وتفرّعها.

فقد قيل للحسن البصريّ، رحمه الله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب الاستطابة.

«قد أكثر الناس في علم الآداب، فما أنفعها عاجلاً وأفضلها آجلاً؟

فقال: التفقه في الدين، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين.

والزهد في الدنيا، فإنه يقربك من رب العالمين.

والمعرفة بما لله تعالى عليك يحويها كمال الإيمان»[١].

مراد الحسن، رحمه الله تعالى، الأدبُ بمعناه العام الذي هو شعائر الدين، أما الأدب بمعناه الخاص فقد ذكر فيه ابن المقفع، رحمه الله تعالى، قاعدة جامعة للتحلي به واكتسابه، فقال:

«يا طالب الأدب، اعرف الأصول والفصول[٢]، فإن كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دَرَكهم دَرَكاً[٣]، ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل»[٤].

---

(١) «لباب الآداب»: ٢٠٣.

(٢) أي أصول الأدب وفروعه، أو كباره وصغاره.

(٣) الدَّرَك: اللحاق والوصول، انظر «المصباح المنير»: (د ر ك).

(٤) «الأدب الكبير»: ٢٤٦.

فإذا حرص الشخص على الخصال الأدبية التي سنها الشرع، أو ارتآها الصالحون ولم تخالف الشرع، وحرص، أيضاً، على المحافظة على الأعراف الصالحة غير المخالفة للشرع المطهر، إذا حرص الشخص على ذلك كله، وحاول تطبيقه على نفسه وأهله، فإنه يُرجى له أن يكون مؤدَّباً مؤدِّباً، إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

المسألة الخامسة:

ذكر أهم كتب الأدب.

الكتب التي ذكرت الآداب على أنواع:

أولاً: كُتبٌ صُنِّفت من أجل هذا الغرض لا غير، ومن أحسنها على ما أعلم، والله أعلم:

أ ـ «لباب الآداب» للأمير الكبير الصالح المجاهد أسامةَ بنِ مُنقذ[١]، أحد أبطال الإسلام، رحمه الله تعالى، وكان السُّلطان صلاح الدين يؤانسه ويجالسه، ويذاكره في الأدب ويدارسه[٢].

---

(١) ولد سنة ٤٨٨، وتوفي سنة ٥٨٤، وكان أهله أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة، وكان من العلماء الشجعان، انظر «البداية والنهاية»: ١٢/ ٣٣١.

(٢) «مقدمة لباب الآداب» للأستاذ أحمد شاكر، رحمه الله تعالى: ٢٣.

وتكمن أهمية الكتاب أن مصنفه قد عمله وعمره إحدى وتسعون سنة فوضع فيه عُصارة عمره، رحم الله أئمتنا ما أعظمَ هِمَمَهم!

ب ـ «أدب الدنيا والدين» للإمام الماورديّ[١]، رحمه الله، وقد شرحه شرحاً حسناً الشيخ خان زاده[٢]، وسمى ذلك الشرح: «منهاج اليقين».

جـ ـ «الآداب الشرعية» لابن مُفْلح الحنبليّ[٣]، رحمه الله تعالى، وهو من الكتب المليئة بالآثار وأقوال الصالحين في الأدب.

---

(١) الشيخ الإمام علي بن محمد بن حبيب الماورديّ الشافعيّ، أقضى القضاة، صاحب التصانيف، ولي القضاء ببلدان شتى، ثم سكن بغداد، تبحّر في المذهب الشافعيّ. توفي سنة ٤٥٠ وقد بلغ ٨٦ سنة، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٦٤ ـ ٦٨.

(٢) أويس وفا بن محمد بن أحمد الأرزنجانيّ الشهير بـ(خان زاده)، توفي سنة ١٣٢٧، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٢/ ٣٢.

(٣) محمد بن مفلح بن محمد، أبو عبدالله شمس الدين المقدسيّ الراميّنيّ ثم الصالحيّ، ولد ببيت المقدس سنة ٧٠٨، وكان أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد، وله عدة مصنفات، توفي بدمشق سنة ٧٦٣ رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٧/ ١٠٧.

د ـ «غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب» للشيخ محمد السفارينيّ[١] الحنبليّ، رحمه الله تعالى، شرح فيها منظومة «الآداب» للشيخ شمس الدين المَرْداويّ الحنبليّ[٢]، رحمه الله، وهو كتاب ثَرٌّ، عظيم المباحث غزيرها.

هـ ـ رسالتا الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفّع، رحمه الله تعالى، وقد ذكر فيهم جملة من الآداب على هيئة النصائح والعظات، وقواعد المخالطة لأصناف الخلق، وقد خلت الرسالتان من الآثار والقصص.

و ـ «من أدب الإسلام» للأستاذ أبي غُدة، رحمه الله تعالى، وقد ذكر فيها آداباً مناسبة لأهل العصر، يحسن الأخذ بها، ويشبهها في هذا رسالة «تقرير ميدانيّ» للأستاذ الراشد، حفظه الله، في بعض مباحثها.

ثانياً: كتب أفردت للآداب أبواباً من جملة أبوابها،

---

(١) محمد بن أحمد بن سالم السفارينيّ، شمس الدين أبو العون، ولد سنة ١١١٤. وكان عالماً بالحديث والأصول والأدب محققاً، ولد في سفارين، من قرى نابلس، ورحل إلى دمشق ثم عاد إلى نابلس وتوفي فيها سنة ١١٨٨، له عدة مصنفات، انظر «الأعلام»: ٦/ ١٤.

(٢) علي بن سليمان بن أحمد المَرداويّ ثم الدمشقيّ، فقيه حنبليّ، من العلماء، ولد سنة ٨١٧ في مردا، قرية قرب نابلس، وانتقل في كبره إلى دمشق فتوفي فيها سنة ٨٨٥، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٤/ ٢٩٢.

مثل غالب كتب الحديث من صحاح وجوامع وسنن، وقد جاء فيها جملة وافرة من الأحاديث والآثار في الأدب.

وهناك كتب حديثية أُلفت لأغراض متنوعة حاز باب الأدب منها حيزاً واسعاً، مثل: «رياض الصالحين» للإمام النوويّ(١)، رحمه الله تعالى، و«الترغيب والترهيب» للحافظ المنذريّ(٢)، رحمه الله تعالى، و«جامع الأصول» لابن الأثير(٣)، رحمه الله تعالى، و«التاج الجامع للأصول»

---

(١) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرّي، محيي الدين أبو زكريا النوويّ، الحافظ الفقيه الشافعيّ الزاهد، أحد الأعلام، ولد سنة ٦٣١ بـ(نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام. وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبد، وألّف مصنفات نفع الله تعالى بها المسلمين، توفي بـ(نوى) سنة ٦٧٦، رحمه الله تعالى، انظر «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

(٢) الإمام العلامة الحافظ المحقق شيخ الإسلام زكيّ الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبدالله المنذريّ الشاميّ الأصل المصريّ الشافعيّ، ولد سنة ٥٨١، وسمع من مشايخ كثيرين وقرأ القراءات، وله عدة مصنفات، توفي سنة ٦٥٦، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٤.

(٣) المبارك بن محمد بن محمد الشيبانيّ الجزريّ، أبو السعادات، مجد الدين، المحدث اللغويّ. ولد سنة ٥٤٤. وتوفي سنة ٦٠٦ بالموصل. وله عدة مصنفات نافعة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٨٨، و«الأعلام»: ٥/ ٢٧٢.

للشيخ منصور ناصف[١]، رحمه الله، وغيرها.

ثالثاً: كتب الأخلاق والرقائق والزهد، وقد أُفرد فيها أبواب للأدب وأخبار الصالحين في هذا الباب، منها: «إحياء علوم الدين» للإمام الغزاليّ على ما في الكتاب من انتقادات حديثية وغيرها، ومختصرات الكتاب نافعة مثل: كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة[٢]، رحمه الله، وكتاب «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لعلامة الشام جمال الدين القاسميّ[٣]، رحمه الله، و«المستخلص في تزكية النفوس» للشيخ سعيد حوّى، رحمه الله تعالى، وغير ذلك.

---

(١) منصور بن علي ناصف، من العلماء بالحديث، مصريّ، كان مدرساً في الجامع الزينبيّ بالقاهرة، توفي بعد سنة ١٣٧١، انظر «الأعلام»: ٧/ ٣٠١.

(٢) الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسيّ الجمّاعيليّ ثم الدمشقيّ الحنبليّ، ولد بجمّاعيل من أعمال نابلس سنة ٥٤١، وكان من العباد الزهاد الأئمة، توفي بدمشق سنة ٦٢٠، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٦٨٠ ـ ١٦٨٢.

(٣) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاّق، من سلالة الحسين بن عليّ، رضي الله عنهما، إمام الشام في عصره، ولد سنة ١٢٨٣، وتضلّع من العلوم والآداب، وله عدة مصنفات، توفي بدمشق سنة ١٣٣٢، رحمه الله تعالى، انظر «الأعلام»: ٢/ ١٣٥.

ومن هذه الكتب أيضاً: «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان البستيّ[١]، رحمه الله تعالى، وكتاب «الغُنية» للشيخ عبد القادر الجيلانيّ[٢]، رحمه الله تعالى، و«مدارج السالكين» للإمام ابن القيم، رحمه الله، و«تهذيب مدارج السالكين» للشيخ عبد المنعم العزيّ، حفظه الله، وغير ذلك من الكتب.

رابعاً: كتب أُلفت في آداب معينة، مثل: «أدب الطلب» للشوكانيّ[٣]، رحمه الله تعالى، و«الجامع لأخلاق

---

(١) محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم، الإمام العلامة الحافظ، شيخ خراسان، التميميّ الدارميّ البستيّ، صاحب الكتب المشهورة، ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وحدّث عن خلق كثير، توفي بمدينة بست سنة ٣٥٤، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٩٢ ـ ١٠٤.

(٢) الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن عبدالله بن جنكي دوست الجيليّ الحنبليّ، شيخ بغداد، ولد بـ(جيلان) سنة ٤٧١، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥٧٣ ـ ١٥٧٦.

(٣) محمد بن علي بن محمد الشوكانيّ، ولد بشوكان، من اليمن سنة ١١٧٣، وهو فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولي قضاء صنعاء سنة ١٢٢٩ وظلّ عليها إلى أن توفي سنة ١٢٥٠ رحمه الله تعالى، له عدة مصنفات، انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٩٨.

الراوي وآداب السامع» للخطيب البغداديّ[١]، رحمه الله تعالى، وكلاهما في طلب العلم، و«الإشارة إلى أدب الإمارة» لأبي بكر المراديّ[٢]، رحمه الله تعالى، وغيرها.

خامساً: كتب التراجم والتاريخ والأخبار التي اعتنت بأخبار الأدباء، وكذلك الكتب التي أُفردت لأخبار الأدب والأدباء، مثل: «العقد الفريد» لابن عبد ربه[٣]، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصبهانيّ[٤] على ما في الكتاب من طَوامّ!!،

---

(١) الإمام العلامة المفتي الحافظ الناقد المحدِّث أحمد بن علي بن ثابت البغداديّ صاحب التصانيف، ولد سنة ٣٩٢، وسمع في صغره وكتب الكثير وتقدم وفاق أقرانه، وكان من كبار الشافعية، توفي سنة ٤٦٣، رحمه الله تعالى، انظر «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٤١١ ـ ١٤١٥.

(٢) محمد بن الحسن المراديّ الحضرميّ، كان أصولياً متكلماً وتولى القضاء بمدينة مغربية متاخمة لبلاد السودان وظلّ بها قاضياً حتى توفي سنة ٤٨٩، انظر مقدمة كتابه المذكور.

(٣) العلامة الأديب الأخباريّ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه المروانيّ مولى أمير الأندلس هشام ابن الداخل، الأندلسيّ القرطبيّ، كان موثقاً نبيلاً، بليغاً شاعراً. توفي سنة ٣٢٨ عن اثنتين وثمانين سنة، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٨٣.

(٤) العلامة الأخباريّ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشيّ الأمويّ الأصبهانيّ الكاتب، من ولد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، كان بحراً في نقل الآداب، بصيراً بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر، والعجب أنه أمويّ=

و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيديّ[١]، و«التذكرة» لابن حمدويه[٢]، و«المحاضرات في الأدب والأدباء» للراغب الأصبهانيّ[٣]، رحمهم الله تعالى، وغيرها من الكتب.



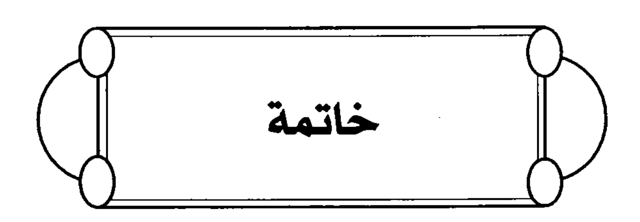
= شيعيّ، توفي سنة ٣٥٦ عن اثنتين وسبعين سنة، المصدر السابق: ١٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٣.

(١) علي بن محمد بن العباس، الشيرازيّ وقيل النيسابوريّ، اختلف في حاله الناس فمن قائل بتوثيقه، ومن حاكم بزندقته، كان متأدباً متصوفاً، متفنناً في علوم كثيرة، طلبه الوزير المهلبيّ ليقتله فاستتر، ومات في استتاره سنة ٣٨٤، انظر «الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ٣٩ ـ ٤١، و«سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١١٩ ـ ١٢٣.

(٢) أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، ولد سنة ٤٩٥، تولى ديوان الزمام للخليفة المستنجد ثم عزله بعد ثلاث سنوات، وكان فصيحاً، له معرفة تامة بالكتابة والأدب، توفي محبوساً لتوهم الخليفة أنه عَرّض بالدولة في كتابه «التذكرة» سنة ٥٦٢، رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

(٣) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهانيّ، العلامة الماهر، المحقق الباهر، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين، سكن بغداد واشتهر، توفي سنة ٥٠٢، رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ١٢٠ ـ ١٢١، و«الأعلام»: ٢/ ٢٥٥.





خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لم أكن أظن، عند بداية تفكيري بإنشاء هذه الرسالة، أن باب الأدب على هذه السَّعَة، وأن الأخبار فيه متشعبة هذا التشعّب، ولكني عندما عالجت التصنيف فيه وجدته بحراً واسعاً، فوفقني الله تعالى لتخير بعض درره والكتابة فيها، فعسى أن يُكمِل الكتابةَ في درره الأخرى من يوفقه الله لذلك.

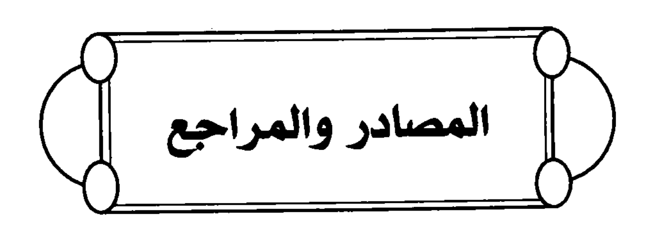
ثم إني قد أثلج صدري، حقاً، عظيم اهتمام الأئمة بالأدب وأخباره، وحرصهم عليه، وزجرهم وتعنيفهم من لا يحفظ الأدب في نفسه ومع غيره، وإني لأرجو من الله تعالى أن يكون كلُّ مقدَّم فينا وصاحب فضل حريصاً على ما حرص عليه الأئمة، فيُبعد ويزجر كلَّ من يسيء الأدب، وينتقص الناسَ حقوقهم الأدبية، ويعاقبه على ذلك حتّى يَرْعَوِي وينزجر.

وإن كان لي رأي أو اقتراح في هذه الرسالة فإنه يتلخص في أهمية إبراز علم الأدب، وتعريف الناس به في المجامع والمحافل، وكتابة الرسائل المتنوعة التي تبين أهمية الأدب، وتبرز الجوانب التي يحتاجها المجتمع منه وكلها مهمة حتى يستأنس الناس بالأدب ويعتادوا عليه، فيصبح سمة بارزة في المجتمعات الإسلامية.

هذا والله تعالى الكفيل بتحقيق ذلك، وهو سبحانه أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، ذي الخلق العظيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



فهرست الأعلام المترجم لهم



المصادر والمراجع

القرآن العظيم.

١ - «**الأدب الصغير**»: عبدالله بن المقفّع.
دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

٢ - «**الأدب الكبير**»: عبدالله بن المقفّع.
دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

٣ - «**الأعلام**»: خير الدين الزركليّ.
نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠.

٤ - «**البصائر والذخائر**»: أبو حيان التوحيديّ = علي بن محمد بن العباس.
تحقيق د. وداد القاضي.
نشر دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨.

٥ - «**تاج العروس من جواهر القاموس**»: السيد محمد مرتضى الزبيديّ.
تحقيق مجموعة من الأساتذة.
مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٦.

٦ ـ **«تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»**:
الإمام بدر الدين ابن جماعة.
تحقيق دائرة المعارف بحيدر آباد.
نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
٧ ـ **«تفسير القرآن العظيم»**: الإمام الحافظ ابن كثير.
تحقيق مجموعة من الأساتذة.
دار الشعب، القاهرة.
٨ ـ **«تقريب التهذيب»**: الحافظ ابن حجر = أحمد بن علي بن محمد.
تحقيق الأستاذ محمد عوامة.
نشر دار الرشيد، حلب، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦.
٩ ـ **«جواب كتاب من الريّ»**: الحكيم الترمذيّ.
تحقيق بيرنْد راتْكِه.
دار النشر في شتوتجتارت بإشراف المعهد الألمانيّ ببيروت، طبعة المطبعة الكاثوليكيّة.
١٠ ـ **«زاد المعاد في هدي خير العباد»**: الإمام ابن قيّم الجوزيّة.
تحقيق الأستاذين شعيب وعبد القادر الأرنؤوط.
مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢.
١١ ـ **«صحيح الإمام البخاريّ»**.
١٢ ـ **«صحيح الإمام مسلم»**.
١٣ ـ **«صفحات في أدب الرأي»**: الأستاذ محمد عوّامة.
دار القبلة، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢.

١٤ ـ **«علماء الإسلام»**: الأستاذ محمد سليمان.
دار الكاتب العربيّ.

١٥ ـ **«غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب»**: الشيخ محمد السفارينيّ الحنبليّ.
نشر مؤسسة قرطبة.

١٦ ـ **«فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ»**: الإمام ابن حجر العسقلانيّ.
تحقيق مجموعة من الأساتذة.
نشر مكتبة الكليات الأزهريّة، القاهرة ١٣٩٨.

١٧ ـ **«الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني»**: تأليف الأستاذ أحمد عبدالرحمٰن البنّا.
دار الشهاب، القاهرة.

١٨ ـ **«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»**: حاجي خليفة = مصطفى بن عبدالله.
نشر دار العلوم الحديثة، بيروت.

١٩ ـ **«لباب الآداب»**: الأمير أسامة بن منقذ.
تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر.
دار الكتب السلفية، الطبعة الثانية ١٤٠٧.

٢٠ ـ **«لسان العرب»**: الشيخ العلاّمة جمال الدين ابن منظور الأفريقيّ.
دار صادر، بيروت.

٢١ ـ **«مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»**: الحافظ نور الدين الهيثميّ.

نشر مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٦.
٢٢ ـ **«المختار المصون من أعلام القرون»**: لواضع هذه الرسالة.
نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ.
٢٣ ـ **«مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»**:
الإمام ابن قيم الجوزية.
تحقيق الشيخ محمد الفقيّ.
نشر دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣.
٢٤ ـ **«المصباح المنير»**: الشيخ العلاّمة أحمد بن محمد الفيوميّ.
نشر مكتبة لبنان ١٩٨٧م.
٢٥ ـ **«مفاتيح الغيب»**: الإمام فخر الدين الرازي.
دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥.
٢٦ ـ **«منهاج اليقين شرح كتاب أدب الدنيا والدين»**: شرح الشيخ أويس وفا بن محمد خان زاده.
نشر دار الكتب العلمية ١٤٠٠.
٢٧ ـ **«من أدب الإسلام»**: الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.
نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى ١٤١٢.
٢٨ ـ **«موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين»**: الشيخ محمد جمال الدين القاسميّ.
دار الفكر، بيروت.

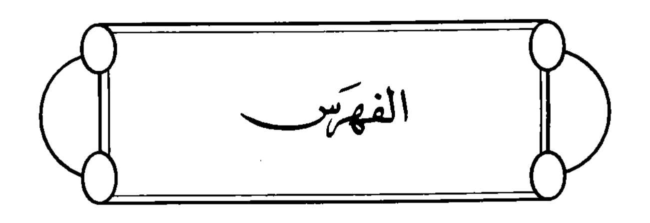
٢٩ - **«نزهة الأرواح وروضة الأفراح»**: شمس الدين الشهرزوريّ = محمد بن محمود.
تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب.
نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس الغرب، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨.

٣٠ - **«نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»**: للمصنف.
نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١١.

٣١ - **«الوافي بالوفيات»**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ.
اعتناء رمضان عبد التواب، نشر دار فرانز شتاينر - فيسبادن، سنة ١٤٠٥.

٣٢ - **«وفيات الأعيان»**: ابن خلكان = أحمد بن محمد بن أبي بكر.
تحقيق د. إحسان عباس.
نشر دار الثقافة، بيروت.




الفهرس

الموضوع	الصفحة